

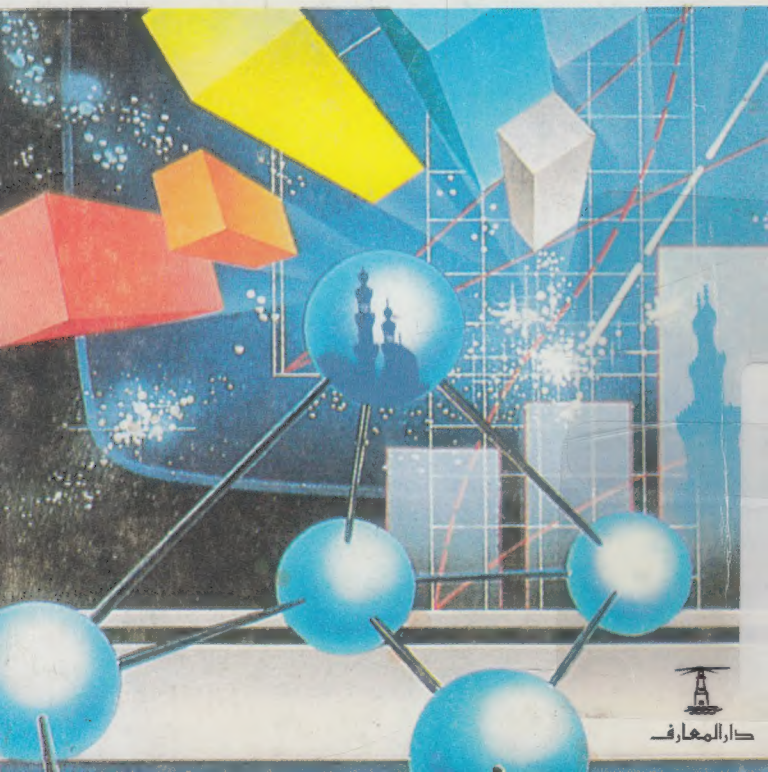
دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

القرآن والتفسير العصري

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ)

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



دار المعارف

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٣٥]

رئيس التحرير: **رجب البنا**

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

القرآن والتفسير العصرى

(هذا بلاغٌ للنَّاسِ)

الطبعة الثانية



دارالمعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحيها .

طه حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

على مدى أربعة عشر قرناً . لم يكن للأمة الإسلامية ملاذ يحمي بقاءها وتحقق به وجودها ، غير هذا القرآن .

وفي صراع القوى المعنوية بين الإسلام وخصومه ، وصراع القوى المادية بين شعوب أمته وأعدائه ، لم يعرف تاريخ الإسلام هدفاً لعدوه — من أى جنس وملة ، وفي أى عصر أو قطر — سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة ، ولوائه الموحد لشمليها على تنائى الديار وتباعد العصور وتفاوت الأجيال واختلاف الأجناس والألوان .

ولإذ لا سبيل إلى تحريف نصّه الثابت وتبديل كلماته الموثقة ، كان هم أعداء الأمة أن يحتالوا عليها بتدويلات خلابّة تنحرف بالفهم الإسلامى عن كتابه المحكم .

فهل من سبيل يؤمن وجودنا ، سوى أن يكون فهمنا لكتاب الإسلام محرراً من كل الشوائب المقحمة والبدع المدسوسة ، بأن نلتزم فى تفسيره ضوابط منهجية تصون حرمة كلماته ، فنفرض بها الزيف والباطل ، وننتقى أخذة السحر ، وفتنة التويه ، وسكرة التخدير ؟

ذلك هو ما أحاول هنا أن أحدث فيه إلى ضمير أمتى ، من هدى القرآن الكريم ، بمنطق العصر وسنة الحياة وعبرة

التاريخ ؛ لتعلم أن ما تسمعه دنيانا من دعوى الحاجة إلى تفسير عصرى غير الذى بينه نبي الإسلام وعرفته مدرسة النبوة ليس إلا نعمة جديدة خلافة ، لا تخطئ فيها ذاكرة التاريخ ، رجع الصدى لما سمعه المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من المرتابين فيما أبانغ من آيات رسالته وما بين من هداها :

«وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » صدق الله العظيم

فجأة من حيث لا نتوقع ، يتردد في أفقنا كلام عن حاجة الناس إلى تفسير عصرى للقرآن يستجيب للتقدم العلمى ، ويتابع ما يتحدث الإنسان من علوم العصر ، وما يكتشف من أسرار الذرة والإلكترون وبيولوجيا القمر . . .

ويسأل سائل : [كيف يمكن أن يتجمد فهمنا للقرآن عند الذى فهمه أسلافنا منذ أربعة عشر قرناً وقد عاشوا بعقلية عصر لم يكن يعرف معنى كلمة بيولوجيا وحيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشيخ وأثر وبيولوجيا ؟]

وهذا كلام يبدو فى ظاهره منطقياً ومعقولاً ، يلقى إليه الناس أسماعهم ، ويبلغ منهم غاية الإقناع ؛ دون أن يلتفتوا إلى مزالقه الخطرة التى تمسح العقيدة والعقل معاً ، وتختلط فيها المفاهيم وتتشابه السبل فتفضى إلى ضلال بعيد .

إلا أن نعتمد بإيماننا وعقولنا ، لنميز هذا الخلط الماسخ لحرمة الدين ، المهين لمنطق العصر وكرامة العلم .

وأول ما يشغلنى من هذه القضية ، هو أن الدعوة إلى فهم القرآن بتفسير عصرى على غير ما بينه نبي الإسلام ، تسوق إلى الإقناع بالفكرة السامة التى تنأى بأبناء العصر عن معجزة نبي أمى ، بعث فى قوم أميين ، فى عصر كان يركب الناقة والحمل

لا المرسيدس والرولز رويس والبوينج وأبوللو ولونا ، ويستضيء بالحطب لا بالكهرباء والنيون، ويستقى من نبع زمزم ومياه الآبار والأمطار ، لا من مصفاة الرشيع ومياه فيشي ومرطبات الكولا... .

ونتورط من هذا إلى المزلق الخطر ، يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان وضمايرهم، فيُرسخ فيها أن القرآن إذا لم يقدم لهم علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك والفارما كوبيا وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرة... . فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ويقبله منطقنا العصري !

هكذا باسم العصرية ، نغريهم بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة في عصر المبعث ومدرسة النبوة ، ليفهموه في تفسير عصري من بدع هذا الزمان .

وباسم العلم . نخايلهم بتأويلات محدثة ، تلوك كلمات ساذجة عن الذرة والإلكترون وتكنولوجيا السدود ، وبيولوجيا العنكبوت وديناميكا الصلب وجيولوجيا القمر ...

وفي ضجيج هذه الكلمات الطنانة الرنانة ، وخلاصة ما يقدمه التفسير العصري من عجائب وغرائب ، تبهر البصر فتعذر الرؤية الثاقبة التي تميز حقاً من باطل ، وعلماء من دجل ، وإيماناً من زخرف قول وبهرج بدعة ؛ ويفوتها أن تفصل بين منطق تفكير علمي

وجرأة ادعاء وطبول إعلان

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

والعلم فريضة والشهادة أمانة، وكلمة الحق مسئولية وتكليف.
وفى مواجهة التيار الجائح ، أودى فريضة العلم وأمانة
الشهادة ، لكيلا أبوء بلعنة إثم القلب .

* * *

فى وعي وسمعى ، أصداء مماثلة من دعوة سابقة ،
بشربها فى أعقاب الثورة العربية دعاة أجنب ، لم يجروا على
التصدى للقرآن مباشرة ، فاتجهوا إلى لغة القرآن .
وخرجوا على الناس فى أقنعة العصرية والعلمية والتقدمية ،
ينادون بأن [هذه اللغة البدوية هى المسئولة عن تخلفنا العلمى
والحضارى ، لأنها التى قتلت فىنا موهبة الاختراع ، وقضت
علينا بالحمود والعقم ، إذ تفكر بلغة أسلاف لنا عاشوا فى عصر
البداوة] .

وتصدى ضمير الأمة لمواجهة تلك الدعوة الأجنبية
بالتحدثى والرفض ، فكادت تذهب مع الريح ، لولا أن حمل
لواءها دعاة من مثقفينا العصريين ، أنكروا هذه اللغة التي
أورثتنا عقليتها القديمة المتحجرة المتبلدة . واشتدت حملة
« الأستاذ سلامة موسى » على [الأحافير اللغوية التي ورثناها من
مجتمع ديني زراعي إقطاعي ، فلغتنا الرسمية ليست لغة
الديمقراطية والأوتومبيل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن
وتقاليد العرب ، فلا أمل لنا في حياة صحية ، مع لغة خرساء
تجهل نحو مائة علم وفن ، لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا
لغتنا إلى لغة أخرى] .

ولم تجد الدعوة إلى نبذ [لغة القرآن] صديدا ، فكان أن
عمد داعية العصرية إلى محاولة جديدة لتطوير معجم لغتنا
وأساليبها البدوية ، وقدم نماذج من (اللغة والبلاغة العصرية) المقترحة
لا تبعد كثيراً عن المحاولة العصرية لتفسير القرآن . فتصور ،
أوصوّر لنا ، أننا ندخل سباق العصر العلمي ، بمجرد أن نستعمل
مثلا : [التاقل الرومانيزم] ، والطاقة الموطرية للكلمات ، ومذهب
التطور من أعظم الحماثر الاجتماعية ، والحرب قاطرة التاريخ ،
وتجرّمت الفكرة عندي] .

وكما اشتدت حملته على حماة الفصحى [لغة القرآن
الموروثة من مجتمع ديني زراعي] ، ورأى فيهم أعداء التطور
وكهان العصر [وهم الذين تخصصوا في درس اللغة العربية ،

فإن تخصصهم ضيق آفاقهم ، فصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة في المعابد . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقي ، ينهضان على استبقاء العربية على جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية ، ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها ^(١) .

أقول : كما اشتدت حملته على حماة الفصحى والمتخصصين في العربية ، تشتد الحملة اليوم على احتكار أصحاب التخصص في الدراسات القرآنية ، وتنشر مجلة صباح الخير ، نداء لزميل من محرريها ، يدافع بنفس المنطق ، وأكاد أقول بنص الكلمات ، عن التفسير العصري ، ويرجو لي [أن أفكر في هذه القضية بعقلية المفكر الحريص على مصلحة الأمة ، لابعامة المحترف الذى يحرص على مستقبله الخاص ، ويدافع عن اختصاصاته الرسمية التى يأكل منها خبزه] .

* * *

والسؤال الخطير الذى تطرحه القضية هو :

هل نفهم القرآن كما بينه نبي الإسلام ، أو كما يفهمه

(١) القضية معروضة بمزيد تفصيل ، في كتابي (لغتنا والحياة) ط معهد

مفسر عصرى ، ندب نفسه لمنصب الفتيا فى العقيدة وجعل من
المجلة داراً عصرية لإفتاء المسلمين فى الحلال والحرام ، وأذاع
أنه فهم من القرآن [أن جبريل يمكن أن ينزل فى أى زمان
ومكان ، على أى نبي من أى عصر وبأية لغة] ؟

فلننظر فى هذا التفسير العصرى ، من حيث هو نموذج
ومثال لما يخوض فيه من يتكلمون فى القرآن بغير علم ، وما يتعرض
له الفهم الإسلامى من بدع التأويل بالرأى والهوى :

« مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبْنائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » صدق الله العظيم

عائشة عبد الرحمن
أستاذ التفسير بجامعة القرويين: المغرب

شعبان : ١٣٩٠
أكتوبر : ١٩٧٠

هذا القرآن

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

القرآن الكريم هو معجزة نبوة المصطفى المبعوث بختام
الأديان .

وهو كتاب العقيدة الإسلامية .

وسائر أصول شريعتها ، من السنة والقياس والإجماع ،
مأخوذة من القرآن الكريم ومستمدة منه ، أصلاً أول .

والمذاهب الفقهية تتعدد ، والأصل واحد . والفرق الإسلامية
تختلف ، محتكمة دائماً إلى فهمها لكتاب الإسلام ، ومستدلة
بنصوص آياته .

وعلى تنائي المكان ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ،
تتفاوت المجتمعات الإسلامية ، وهذا القرآن مناط وحدة هذه
الأمه عقيدةً وروحاً وفكراً ومزاجاً .

وعلى تباعد الزمان من غار حراء إلى عصر القمر ، تتفاوت
الأجيال في موقفها من التدين وفهمها لختام الأديان . . .
وبقي القرآن ثابتاً لا يتغير ، موثقاً لا يمسّه أدنى تبديل
ولا تتعلق به شبهة من أى تحريف .

* * *

من فجر المبعث ، بدأ توثيق القرآن الكريم : بتلوه
المصطفى على صحابته ، ويقرءونه عليه ، ويكتبه كتاب

منهم ، على ما تيسر من مواد الكتابة ، بإشراف المصطفى عليه الصلاة والسلام وتوجيهه .

كان هناك تنبه مرهف ، إلى ما لحق التوراة من تزيف يهود ، وما لحق الإنجيل من اختلاف الطوائف المسيحية عليه ، نصاً وفهماً وتأويلاً .

وإذ كان القرآن الكتاب الخاتم للرسالات الدينية ، المصدق لما سبقه من كتبها ، والمستصفي لما فيها من جوهر الدين الواحد الحق ، فرضت الحاجة إليه ضرورة توثيق نصه ، لتجد فيه البشرية الكلمة الأخيرة للدين ، آمنة من شبهة أى تحريف له أو تبديل .

لم يكتف المصطفى بأن يحفظه الصحابة في صدورهم ، بل نذب لكتابته عدداً من كتبهم ، وكان هو الذى يحدد موضع كل آية من سورتها ، بتوجيه الوحي .

وتوفى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، والقرآن كله محفوظ في صدور الصحابة ، مدون على ما تيسر من الرقاع والعصب وألواح الأكتاف ورقاق الحجارة ، وإن لم يجمعه كتاب واحد .

في عهد أبي بكر ، أول الخلفاء الراشدين ، كانت عملية جمع القرآن من صحفه المتفرقة :

في حروب الردة ، استشهد عدد غير قليل من الصحابة

حفظه القرآن، بلغ في «يوم اليمامة» نحو أربع مائة وخمسين صحابياً^(١). وكان «عمر بن الخطاب» هو الذي سعى سعيه لهذا الجمع : تحدث فيه إلى أمير المؤمنين أبي بكر الصديق ، فردد رضى الله عنه ، تخرجاً من أن يفعل شيئاً لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل «عمر» يراجع في الأمر حتى شرح الله صدره لذلك .

وتمت عملية الجمع والعهد بالمصطفى قريب ، ونُذِب لها «زيد بن ثابت» أحد كتاب الوحي للرسول ، وحُفِّظَ القرآن الثقات . وأمير كل من لديه شيء من الصحف والرقاع أن يقدمها إلى «زيد» فبلغ من حرصه وتخرجه ، أن كان لا يكتفي بمراجعة ما يتلى من صحف القرآن على حفظه ، بل بالغ في الاحتياط فلم يقبل من أحد آية إلا أن يأتي بشاهدين على أنها كُتبت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأودع القرآن مجموعاً في مصحف ، لدى أم المؤمنين «حفصة بنت عمر»

في عهد الخليفة الثالث «عثمان بن عفان» وحُذِّثت قراءة المصحف على حرف واحد . ونُسخت منه نسخ ووزعت على الأمصار الإسلامية ، مع الأمر بأن يُحرق ما عداها من

(١) صحيح البخارى : كتاب فضائل القرآن - مع تاريخ الطبرى ، حوادث سنة ١١ هـ .

مصاحف ، بإقرار الصحابة ومشورتهم .

قضت بذلك ضرورة طارئة لفتت إلى خطر لم يكن في الحساب :

كان المسلمون من قبائل العرب قد أذن لهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن على عدة وجوه ، تعرف في المصطلح القرآني بالأحرف السبعة ، يختلف فيها منطوق ألفاظ من القرآن دون معانيها ودلالاتها ، تبعاً لاختلاف لهجات العرب أو لغاتهم ، على وجه التيسير لهم بالقراءة على ما تطوع به ألسنتهم ، كأن يقرأ بعضهم : « كلما أضاء لهم مشوا فيه »^(١) ويقرأها آخرون : سعا فيه ، أو : مضوا فيه . ولم يكن اختلاف الأحرف السبعة في كلمات من القرآن ، يثير أى قلق أو شبهة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفته أنى بكر وعمر . إذ كان المسلمون العرب يعلمون علم اليقين أن الأمر فيه لا يعدو اختلاف لهجات القبائل في هذا اللفظ أو ذاك ، للمعنى الواحد .

لكن بواذر القلق لاحت بعد أن خرج العرب من جزيرتهم يحملون لواء الإسلام ، وكان أن فتحوا مصر والشام

(١) آية البقرة : ٢٠ - وانظر مختلف الأقوال في الأحرف السبعة ،

في (البرهان في علوم القرآن) للزركشى ١ / ٢١٣ ط الحلي ٩٥٧ .

و (الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي : ١ / ٥١ ط مصر ١٢٨٧ هـ .

والعراق قبل أن يمضى ربع قرن على الهجرة ، وخالطوا شعوبها التى وجدت فى سماحة الإسلام ويسره وإقراره حرية التدين ، ملاذاً من وطأة الفرس والرومان .

عندئذ خيف على الإسلام أن تسمع هذه الشعوب الطارئة على العربية ، قراءة المسلمين العرب للقرآن ، فيظنوا أنهم يختلفون فيه ، باختلاف هذه الأحرف المباح لهم قراءته بها . .

ثم اشتد القلق حين خرج مسلمو الشام والعراق ، مع كتائب الفاتحين ، إلى ما وراء النهر . وقد كان هؤلاء وهؤلاء ، تلقوا القرآن من صحابة تختلف قبائلهم . فحدث أن أهل الشام خطئوا أهل العراق ، وكذلك خطئوا العراقيون أهل الشام ، على مرأى ومسمع من شعوب البلاد التى امتدت إليها راية الإسلام .

روى « البخارى » فى (صحيحه) أن الصحابى « حذيفة بن اليمان » خرج مع جند الشام والعراق فى فتح أرمينية وأذربيجان ، فأفرجه اختلافهم على قراءة القرآن ، فلما رجع قدم على الخليفة عثمان فقال له : « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا على القرآن اختلاف اليهود والنصارى » .

وتتابعت النذر بأصداء هذا الاختلاف ووقعه ، فكان أن استقر رأى على ضرورة حسمه :

أرسل « عثمان » إلى أم المؤمنين « حفصة » يستأذنها فى أن تخرج إليه المصحف المجموع المودع لديها ، لينسخ منه نسخاً ثم يعيده إليها .

ونذب أربعة من الصحابة برياسة «زيد بن ثابت» لكتابة المصحف بلغته القرشية التي قرأه بها المصطفى في العرصة الأخيرة للقرآن ، فلما فرغوا من كتابة المصحف الإمام ، نسخت منه أربع نسخ - على المشهور - بقيت إحداها في المدينة ، وأرسلت الثلاث إلى الكوفة والبصرة والشام .

وسوّغ هذا الإجراء ، تفاقم الخطر من اختلاف المسلمين على قراءته ، وقد زالت الحاجة التي سوّغت التيسير ، يالف العرب للغة النبي القرشي ، لسان الدين والدولة .

ويحتمل أن يكون بعض المسلمين قد تخرجوا من هذا الإجراء ، لكن أولى الرأي والمشورة من الصحابة ، كانوا مع «عثمان» في ضرورة حسم الخلاف .

في (سنن أبي داود) أن الإمام على كرم الله وجهه قال : « لا تقولوا في عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل ، في المصاحف ، إلا عن ملائنا . . . ولو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل » .

ونقل «الزركشي» ما روى عن «الإمام على» أنه قال :

« رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع المصحف بين اللوحين . ولم يحتج الصحابة في أيامه وأيام عمر إلى جمعه على وجه ما جمعه عثمان ، لأنه لم يحدث في أيامهما من الخلاف فيه ما حدث في زمن عثمان . ولقد وفق لأمر عظيم ، رفع

الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة» (١).

* * *

بالمصحف الإمام ، لم يعد هناك أى خلاف إلا فى طريقة القراءة للمصحف الواحد ، من حيث المسلك الصوتى وكيفية الأداء لما يحتمله رسم الكلمة . وهذه أيضاً ، لم ترك بغير ضابط ، بل عرفت الأمصار الإسلامية من ذلك الزمن المبكر أئمة من جيل التابعين يرجع إليهم الناس فى إلقاء القرآن ، على ما تلقوه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الناس على رأس المائة الثانية للهجرة ، على قراءة «أبي عمرو بن العلاء» بالبصرة ، و«حمزة وعاصم» بالكوفة ، و«ابن عامر» بالشام ، و«ابن كثير» بمكة ، و«نافع» بالمدينة : كلهم ممن اشتهرت إمامتهم وطال عمرهم فى الإلقاء ، وارتحل الناس إليهم من البلدان .

وعلى رأس المائة الثالثة اقتصر «أبو بكر بن مجاهد» - شيخ القراء فى بغداد ، ت سنة ٣٢٤ هـ - على القراءات السبع المشهورة ، المنقولة عن الأئمة السبعة :

• عبد الله بن كثير المكي ، مولى القرشيين ، التابعى : وتوفى بمكة حوالى سنة ١٢٠ هـ .

• نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني ، توفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ .

• عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي ، قاضي دمشق :
من كبار التابعين ، توفي حوالى سنة ١١٨ هـ .

• أبو عمرو بن العلاء البصرى ، توفي سنة ١٥٤ هـ .

• عاصم بن أبى النّجود ، أبو بكر الأسدى الكوفى ،
توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وعشرين ومائة

• حمزة بن حبيب الزيات الكوفى ، ت حوالى ١٥٦ هـ .

• أبو على بن حمزة الكسائى الكوفى ، مولى بنى أسد^(١) .

والسبب فى اشتهار هؤلاء السبعة دون غيرهم ، أنه لما كثر
قراء القرآن ، نظر الناس فى كل مصر إلى إمام مشهور بالفقه
والأمانة وحسن الدين وكمال العلم ، قد طال عمره منقطعاً إلى
الإقراء ، وأجمع أهل المصر على عدالته .

وتنقلت القراءات السبع المتفق عليها عبر الزمن بالتواتر ،
متصلة الإسناد طبقة عن طبقة ، إلى القراء السبعة الأئمة .

ومهما تختلف هذه القراءات فى طرق الأداء فإنها تلتقى
جميعاً فى اتصال إسنادها ، وموافقتها لغة العرب ، والتزامها رسم
المصحف العثمانى الإمام .

(١) راجع تراجم القراء السبعة الأئمة ، فى كتاب طبقات القراء
لابن الأثير الجزرى .

وتتابعت أجيال من المحققين على خدمة القراءات ،
وصُنفت كتب في نَقط المصاحف ، وفي ضوابط الوقف وسائر
قواعد التجويد ، على القراءات السبع التي يقرأ بها القرآن اليوم
في البلاد الإسلامية ، على النحو الذي قرأه به الأئمة السبعة
بالإسناد المتصل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

على هذا النحو ، وثُقَّ نص القرآن الكريم بتدوينه في عصر المبعث ، وجمعه من صحفه المتفرقة في عهد الخليفة الأول ، وتوحيد قراءته على رسم المصحف الإمام ، في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان .

وضُبَّت قراءاته بالتواتر ، بالتلقى المباشر عن أئمة القراء ، متصلة الإسناد إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

و بهذا التوثيق الذي لا يعرف التاريخ له مثيلاً ، لم يكن هناك أى مجال لتحريف نصه ، بل سُدَّت كل الذرائع التي يحتمل أن يصل إليه منها أى تغيير أو تبديل ، نصاً ورسمياً وقراءة وتجويداً .

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى التفسير ، من حيث كان مجالا لاختلاف الفهم باختلاف الظروف والأحوال .

فعلى المدى الطويل ، خضع فهم المسلمين للقرآن لمؤثرات شتى : منها ما قصت به طبيعة الحياة مع اتساع العالم الإسلامى وسير الزمن بشعوبه ومجتمعاته .

ومؤثرات أخرى فرضتها عوامل سياسية ومذهبية لم تجد سبيلاً إلى السيطرة على المسلمين ، غير توجيه فهمهم لكتاب

دينهم ، وإخضاعه للأهواء والعصبية : فكان أن تسلمت إلى التفسير القرآني عناصر دخيلة وشوائب مقحمة ، أخذت قوتها حيناً من إلحاح التسلط على الوجدان الديني للجماهير ، وحيناً من فتنة الاستهواء وخلافة البدع وسحر التمويه . وتترك للزمن ، يعطيها من سلطان الإلف وحماسة الوجدان العام ، حرمة تتحدى كل محاولة لتحرير الفهم القرآني من تلك الشوائب الدخيلة والبدع المقحمة والمدسوسات الخبيثة .

وما كان بالأمس بدعة منكورة ، يمكن أن يصير مع الزمن أشبه بالعقيدة .

وما يريئنا اليوم من شطط التأويل ومحدثات البدع ، يمكن أن يتسلط على الوجدان الشعبي بالسحر والتخييل ، فلا يلبث أن يرسخ ويتأصل ، ويغدو التصدى لتصحيحه مجازفة خطيرة .

* * *

وجذور المأساة غائرة بعيدة ، لا يخطئ التاريخ أن يلمح بذرتها الخبيثة فيما أقحم اليهود على التفسير القرآني من عناصر إسرائيلية :

مع التحول التاريخي لحركة الدعوة الإسلامية من أم القرى إلى المدينة ، واجه الإسلام عصابات يهود الناشبة في مستعمراتها بشمال الحجاز ،

ومن عام الهجرة بدأ الجدل في القرآن ، يتولاه أحبار

يهود الذين تمت تعبتهم لإعانت نبي الإسلام والدخول معه في جدل عقيم دون أن يواجهوه بحرب معلنة ، وقد أمّتهم على دينهم وعباداتهم وأموالهم وأنفسهم .

ثم كان أن تعوذ نفر منهم بالإسلام ، ودخلوا فيه ليكيدوا له^(١). وأخذ الذين أسلموا منهم ، مكانهم في المجتمع الإسلامي ، لا يستطيع أحد أن ينفيهم عنه وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

والذين أدركوا منهم نبي الإسلام وبايعوه ، عدواً من الصحابة الذين ترجع إليهم الأمة في أمور دينها ، فهم تراجمة القرآن للأجيال التي لم تدرك عصر المبعث ، وهم رواة السنة : المصدر الثاني للشريعة الإسلامية .

* * *

ومن الجيل الأول للذين أسلموا من يهود ، بدأت تدخل الفهم الإسلامي عناصر من تأويلاتهم وشروحاتهم . عرفت في المصطلح باسم « الإسرائيليات » .

وكانت الثغرة التي تسالت منها هذه العناصر ، أن القرآن يُحمل غالباً ، قصص القرون الحالية ، تركيزاً على موضع العبرة منها وجوهر الحادث .

وفيه كذلك آيات عن غيبات ، ما كان المسلمون

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ٢ / ١٧٤ ط الحلبي .

الأولون ليخوضوا فيها ، ولا علم لهم بشيء منها إلا ما جاء في القرآن عنها .

وهؤلاء اليهود أهل كتاب . . .

وقد تضخم تراهم من المقولات الدينية .

وإذ كان الإسلام يَحِبُّ ما قبله ، لم يسترب عامة المسلمين فيمن أسلموا من يهود ، وألقوا إليهم أسماهم وهم يتفنون في سرد حكايات جذابة وتفصيلات مثيرة ، تفسيراً لما اكتنى القرآن بالإشارة إليه . وغلب الوهم ، بأنها من المرويات الدينية لأهل الكتاب ، دون تنبه إلى ما دس عليها من أسطوريات شُحنت بها العقلية الإسرائيلية في تيهها القديم وتشردها الطويل .

ولم يحل دون رواج الإسرائيليات ، أن القرآن شهد على يهود بتقولهم على الله وتحريفهم كلماته تعالى عن مواضعها :
ومن أوائل العهد المدني ، حيث خالط اليهود المهاجرين والأنصار ، تابعت آيات القرآن تحذر المؤمنين من شر هؤلاء المزيفين الأشرار :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » البقرة : ٧٥

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » البقرة: ٧٨، ٧٩

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » آل عمران : ٧٨ (١) .

كما لم يتحسّل دون رواج هذه الإسرائيليات . ما روى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم من حديث في أقوال أهل الكتاب وموقف المسلمين منها: يسمعونها ولا يعملون بها . كما حذر عليه الصلاة والسلام أمته من قوم « يقرعون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه على غير وجهه » .

وعُدّز العامة أن الإسلام فرض عليهم الإيمان بالآديان السماوية قبله ، وأكد القرآن أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل . وحديث الرسول ، ليس فيه نهى عن سماع

أقوال أهل الكتاب وإنما النهى عن العمل بها .

وهيات أن يميز عامة المسلمين ، فيما يسمعون من
إسرائيليات ، بين ما هو من أصل التوراة وما هو من تحريف
يهود وأسطورياتهم وعقده ميراثهم من التيه والتشرد والحقد والشر .
ودخلت هذه الإسرائيليات في كتب التفسير ، مروية عن
صحابة يتحرج المسلم من اتهامهم .

وكان لها من موضعها مع الآيات القرآنية ، في كتب
التفسير ، حرمة ومهابة . وبمضى الزمن ، نشبت في فهم
المسلمين للقرآن ، فما استطاعوا أن يتحرروا منها حتى اليوم .

* * *

هنا وقفة لابد منها عند هذه الإسرائيليات :

فلقد يبدو لكثير منا أنه يكفي عرضها على ما نجد من نسخ
التوراة ، لتمييز ما نأخذ منها وما ندع .

يسعون : أن نقبل تفسير القرآن بالإسرائيليات التي نجدها
في التوراة ، ونتخلص مما عداها من مدسوسات .

وحجتهم في هذا ، أن القرآن مصدق للتوراة والإنجيل ،
بصريح آياته المحكمات .

وأقول : إنه مع الفرض جدلا بأن التوراة وصلت إلينا دون
تحريف ، فقد بنى أن الإسلام في تصديقه للأديان قبله ،

استصغى منها ما رأى للبشرية المتدنية أن تصير إليه ، فيما هو من جوهر العقيدة ومناط الاعتبار .

والذى استبقاه منها موجود فى القرآن .

والذى نسخه مما جاء فيها ، لا يحل أن ندخله على تفسير القرآن ، وإنما يُعنى به من يشتغلون بتاريخ الأديان والدرس المقارن بينها .

ولمن شاء أن يقرأ أقوال أهل الكتاب فى شروحهم للتوراة ، ولكن ليس لأحد أن يفسر بها القرآن ، لأنه بهذا يقحم عليه ما لم يتعلق بذكره .

فإذا شق علينا أن نفهم أن الدين فى ختام رسالاته قد خاطب البشرية بأسلوب غير الذى كان يلائمها فى عصور نخلت ، فإن لنا أن نقرر أن المنهج العالى ينكر أن نفسر النص بما لا يحتمله لفظه وسياقه .

ومهما يختلف إدراكنا للحكمة العليا فى العدول عن شيء ورد فى كتاب نزل قبل القرآن بقرون ذات عدد ، فما ينبغى أن نفرض على كتاب الإسلام ما لم يأت فيه ، وكأننا بذلك نفرط فى أمانة نصه الموثق ، ونهدر الجهود التاريخية التى بذلت لصيافته بالتوثيق من أى تحريف أو تغيير .

وذلك ما غاب عن أجيال منا ، ظلت تتلقى الإسرائيليات المقحمة على التفسير ، وتفهم بها كتاب الإسلام .

هذه فكرة موجزة عن الإسرائيليات التي دسها يهود على الفهم الإسلامي للقرآن ، من عصر مبكر .

بعدها جاءت العصبية السياسية والمذهبية ، فتدخلت في فهم المسلمين للقرآن بما يسائر أهواءها .

كما جاءت الفرق الكلامية فأضافت إلى كتب التفسير تأويلها لما تحتاج به من آيات القرآن ، في الخصومة الجدلية العنيفة التي احتلمت بين المتكلمين . . .

إلى جانب ما داخل الفهم الإسلامي للقرآن ، من تأويلات لمفسرين من الأعاجم المسلمين ، صَحَّ لهم علمُ العربية ، لغة القرآن ، وفاتهم ذوقها النقي وبيانها الأصيل .

والمتصلون بالدراسات القرآنية ، يعرفون ما حُشيت به كتب التفسير من إسرائيلييات حاول بها اليهود ، ممن دخلوا في الإسلام طوعاً أو كرهاً ، تطعم الفهم الإسلامي للقرآن بعناصر إسرائيلية . ويعرفون كذلك ما أقحم عليه من تأويلات جاءت بها الظروف الدينية والسياسية والتاريخية التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ، وتفاوت بها المفسرون تبعاً لتباين أذواقهم واختلاف عقلياتهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ، في ذلك العالم الإسلامي الواسع الذي امتد من أقصى المشرق ، إلى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبية مذهبية وسياسية وإقليمية ، فاقضى هذا بطبيعة الحال ، أن تَوَارَد على القرآن مفسرون

من أنماط شتى وعصبيات مختلفة...
 وألف في التفسير - كما قال الجلال السيوطي : « خلائق
 اختصروا الأسانيد - التي ترفع المرويات فيه إلى الأئمة - ونقلوا
 الأقوال تبرى . فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح
 بالعليل . ثم صار كل من يصبح له قول يورده ، ومن يخطر
 بباله شيء يعتمده . ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ، ظاناً
 أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف
 الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير » (١) .

* * *

هل يفهم من هذا ، أن تفسير القرآن كان مباحاً لكل
 هؤلاء ، من غير قيد أو شرط ؟
 كلا ، بل كانت هناك شروط ملتزمة ، لا يهاون العلماء
 في ضرورتها للمفسر ، ولا يجرؤ أحد على التصدي للتفسير
 دون استيفائها .

الدراية بعلوم العربية ، كانت الشرط الأول !
 وهو شرط لم تكن هناك حاجة إلى تقريره في العصر الأول ،
 والقرآن في بيئة العربية الفصحى .
 ثم مع الفتوح الكبرى ، خرج المسلمون من بلاد العرب ،
 واستقروا في الأقطار التي فتحها الإسلام ، وخالطوا شعوبها .

فبعدت الفصحى عن بيتها الأولى وتعرضت لما قضت به طبيعة الظروف وسنن الاجتماع اللغوى ، من شوائب العجمة واختلاط الألسن . وظهرت آثار من ذلك كله على جيل المولّدين من العرب الذين ولدوا فى الأقطار المفتوحة .

وتعربت الشعوب الداخلة فى الإسلام ، فاتسع المجال للغوى للعربية ، فى القرن الأول للهجرة ، من المشرق الآسيوى فى خراسان وما وراء النهر ، إلى المغرب الإفريقى حتى ساحل المحيط الأطلسى .

ومن حيث وقف التاريخ مبهوراً يرصد حركة التحول اللغوى لهذه الشعوب ، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التى عصيت من قبل على الغزو اللغوى للفرس واليونان والرومان ، وقف حملة القرآن يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهفون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد ، من شوائب العجمة وعثرات اللحن .

وانتهجت الجهود ، لحماية لغة الإسلام ديناً ودولة ، إلى جمع تراث الفصحى الأصيل وتدوينه ، وعكف عليه العلماء ، من القرن الثانى للهجرة ، يستخلصون منه للفصحى معجم ألفاظها ، ويستنبطون بالاستقراء والقياس ، قواعد نحوها وتصرفها واشتقاقها ، وخصائص أساليبها فى التعبير والبيان^(١) .

(١) تفصيل هذا ، فى كتابى (لغتنا والحياة) : العربية فى أقطارها

وكانت علوم العربية صعبة حتى على أهلها .

وعلى مر القرون ، تضخم رصيدها من القواعد والمذاهب والمتون والشروح ، وصار الفقه بها أمراً عسيراً لا يدرك إلا بالدراسة المتخصصة الطويلة ، والجهد المضني .

وكانت العاميات إلى جانبها ، تقوم بحاجات الحياة اليومية ، فتغني عامة المثقفين عن طلب علوم الفصحى ، وهي العلوم التي وضعت أساساً لخدمة القرآن ، وفهمه بها . من هنا ، كانت الدراية بهذه العلوم لغة وبياناً ، من أول ما اشترطه علماؤنا في المفسر .

ما من كتاب في علوم القرآن ، لم ينص على أن يكون المفسر عالماً بالعربية .

ويروون في ذلك ، كلمة الإمام مالك :

« لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا »^(١) .

بل إنهم أدخلوا علوم العربية أصالة ، في علوم القرآن ، على نحو ما تجده في كتابتي « البرهان في علوم القرآن ، والإتقان في علوم القرآن » .

وكل الذين عرضوا لقضية الإعجاز ، أجمعوا على أن فقه العربية

(١) البرهان للزركشي : ١ ، ٢١٢ ، والإتقان للسيوطي : ١ / ١٧٩ .

لغة وبيانا ، هو أداة النظر في الإعجاز .

ويمكن القول بأن جمهرة الكتب المؤلفة في : مفردات القرآن ، وأقسامه ، وإعرابه ، ومجازه ، وبديعه ، ودلائل إعجازه ... تأخذ مكانها في المكتبة اللغوية والبلاغية .

وتأتى مع علوم العربية ، سائر علوم القرآن مما لا يتصور أن يتصدى مفسر لتأويله ، وهو يجهل مثلاً أسباب نزوله ، والمحكم والمتشابه ، وقراءاته ، ورسم المصحف ...

ثم هو فى حاجة كذلك إلى دراية بعلوم الحديث من حيث كانت السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل منه ، مع دراية كذلك بعلم التوحيد وأصول الدين ، وأحكام الفقه المستنبطة من الكتاب والسنة .

ولا يستغنى المفسر بعد هذا كله عن معرفة بالفرق الإسلامية واتصال بكتب الكلام ، وعلم بتاريخ الإسلام .

* * *

والمفسرون من السلف ، كانوا من علماء العربية والإسلام ، تجد أسماءهم فى طبقات المفسرين ، وتجدها كذلك فى طبقات اللغويين والنحاة ، أو المحدثين والفقهاء ، أو المؤرخين والمتكلمين .

وما يتصدى للتفسير من أصحاب المذاهب والفرق الإسلامية ، إلا أرسخهم قدماً فى علوم العربية والإسلام ، وأبرعهم فى

تخريج الأقوال ومناظرة خصوم المذهب ، حتى ليشق على غير الخاصة أن يهتدوا إلى مسارب التأويل المشتط في تفاسيرهم ، فيقول شيخ الإسلام «الإمام البلقيني» ، إنه استخرج الاعتزال من (تفسير الكشاف للزحشرى) ، بالمناقيش !

وليسوا مع ذلك سواء : منهم من اعتسف التأويل عن حسن قصد ، ومنهم من تورط في التعصب لمذهبه ، قصدا إلى الكيد للإسلام .

* * *

كيف احتمل الإسلام كل هاتيك الشوائب التي شابت فهم أمته لكتاب دينها ، دون أن يخبو فيها نوره ؟

الواقع أن الوجدان الديني للأمة . ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات ، بصفاء الإيمان وإلهام البصيرة .

تهديها فطرتها المتصلة بالقرآن الكريم اتصالا مباشراً ، تتلوه أو يتلى عليها مصبحة ممسية ، في الحضر والبادية ، فتجد فيه عاصماً من الزيغ والضلال .

ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره ، لم يخل أى عصر من صوته يحذر الأمة من مدسوسات الإسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء ؛ ولا أعوز الأمة في ليل محنتها ، شعاع من النور يهدي مسراها في الظلمات . وكما شهد التاريخ محاولات الكيد للإسلام بعزل أمته عن

نور هداة ، شهد الأئمة الأبرار ساهرين على حراسة لواء الأمة ،
وتتابعوا على حمل اللواء جيلا بعد جيل ، عن يقين بأن
هذا القرآن هو مناط وجود الأمة ودليل سيرها وسراها .

* * *

وقد تلقى عصرنا هذا التراث ، بكل ما فيه من شوائب
مقحمة وبذور خبيثة ، وكل ما فيه من رصيد قادة الفكر
الإسلامي وحملة لواء القرآن .

وكان عليه أن يميز الخبيث من الطيب ، وأن يحرر الفهم
الإسلامي مما داخلته من مفسوسات ، ويحرره كذلك من
سموم طائفة من متعصبى المستشرقين أضلهم الحق فخانوا
المنهج العلمى الذى ادعوا فينا أنهم حَمَلْتَهُ ، وجعلوا من خدمة
تراث الإسلام ذريعة لاستهواننا ، فتسلطوا على فئة منا بفئة العلمية
فكانوا هم الذين نقلوا سمومهم إلى مناخنا الفكرى^(١) .

(١) اقرأ فى هذا الموضوع : (إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى
الحديث) للمفكر الجزائرى « مالك بن نبي » مكتبة عمار بالقاهرة
ومعه كتاب (تراثنا بين ماضى وحاضر) ط دار المعارف ١٩٦٩ .

مع الغزو الاستعماري في مطلع العصر الحديث . غشيتنا
من صدمة التفوق المادي للحضارة الغربية ما يشبه الدوار .

وفي أخذة الصدمة ، أرهقتنا عقدة الشعور بالنقص التي
سهر الاستعمار على ترسيخها فينا ، فتصور بعضنا ألا شفاء منها
إلا بالانسلاخ من جذور أصالتنا والانتهاء إلى الغرب المتفوق الظافر .
وفي الطرف المقابل ، كان فريق منا يتشبث بكل مخلفات
الماضي ، في رجعية ذاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر .
ووجد هؤلاء وهؤلاء ، ما يهدف إحساسهم بالعقدة ، في مخدرات
الغزو الفكري :

المستغربون وجدوا ملاذهم فيما تسلط عليهم من إلحاح
فكري وثقافي ، أقنعهم بأن شرفيتنا هي سر تخلفنا ، وأن ميراثنا
الروحي هو المشلول عن جمودنا ومحتنا . والآخرون وجدوا مخدر
عقدتهم في اجترار أمجاد ماضينا التي تغني بها بعض المستشرقين ،
فاطمأنوا إلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان !

وحين كانت القضية الكبرى المطروحة على الأمة في
صدمتها بالتفوق المادي لحضارة الغرب الحديث ، هي أن تأخذ
بأسباب العلم لتستأنف خطاها من حيث وصلت إليه في العصر
القيادي للحضارة الإسلامية ، ظهرت محاولة ساذجة لتفسير

القرآن تفسيراً علمانياً. نطمئن به إلى أننا سبقنا عصرنا إلى كل ما يتناول به الغرب علينا من علوم حديثة !

وقدم «الشيخ طنطاوى جوهرى» تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف^(١). ثم لم تكذب تفريق من أثر هذا الخدر بجهود رواد اليقظة لإصلاح الحياة بالدين ، وشحن طاقتها لتحمل تكاليف وجودها الحر ، حتى بغتها لأثر معارك التحرير من مهانة الاستعمار ، صدمة الاجتياح الصهيونى لأقدس حرماننا ، فكشفت عن ثغرات الخلل والتصدع فى منطق تفكيرنا ومنهج حياتنا .

وصارت القضية المطروحة ، هى قضية وجود ومصير... والذئاب الصهيونية تسرح فى حمانا بوطاة قرصان وخيلاء مستعمر. والوجه القبيح يسفر عن قناعه ، ويتأدى فى قبحته وطغيانه ، متكئاً على تفوقه التكنولوجى وأجهزته الجهنمية .

وخطوات الهبوط على سطح القمر توقف النيام .
و«سيوز» محلقة فى مدارها العجيب وراء الفضاء الكونى ،
تتحدى الوهم والخيال . .

وإذ نحاول الأمة. أن تستوعب أبعاد الموقف ، وصولاً إلى طريق النجاة ، ظهر أن الموقع الفكرى ، من أخطر مواقع الميدان .

(١) لمزيد بيان ، اقرأ : (إنتاج المستشرقين) لمالك بن نبى .

وكان على قادة الفكر الإسلامى أن يأخذوا أماكهم فى هذا الموقع الخطر ، ليضيئوا مسراها بنور الكتاب الذى حققت به وجودها وحمت بقاءها ، ويقدموا لها من قيَّسَمه الحالدة ما تواجه به تحديات العصر العلمى ، دون أن يمزقها صراع مفتعل بين العقيدة والعلم ، ودون أن يشغلها جدل عقيم فى قيمة الكتاب الذى جعل الإيمان بالعلم عقيدة وديناً ، وكان لواء الحضارة الإسلامية فى دورها القيادى بالعصر الوسيط .

وكان الظن ألا مجال للخدر فى هدير العصر ودوامه المعركة ، وإذا بمفسرين عصريين لادراية لهم بعلم العربية والقرآن ، يتسلطون على الجماهير بتفاسير عصرية تجذب أسماعهم بكلام خلاب عن سبق القرآن إلى نظريات الرياضيات والفلك وعلم البيولوجيا والحيولوجيا وارتداد الفضاء وغزو القمر ، فما علينا مثلاً أن ترتاد روسيا مجاهل الفضاء ، وأن تهبط « أبولو » على سطح القمر ، وأن تنطلق « سيوز » فى رحلتها الجريئة واقتحامها الظافر ، ولدينا من كل ذلك ما يغنىنا عن التعلق به والسعى إليه ، وعندنا مفسر عصرى يقدم لنا كل علوم الدنيا ، ويضيف إليها علم الغيب والحياة الآخرة !

* * *

إن تحديات عصرنا ، قومية وحضارية ، هى التى تضعنا

أمام ما يروج فينا من تأويلات عصرية للقرآن، لنحدد موقف الدين والعلم من هذه التأويلات التي تقتحم الغيب وتفتي الناس في العلم والدين بغير علم ، وتلهيهم بأنباء الجن والشياطين والملائكة ، وتشدهم من صميم معركة الوجود والمصير إلى هذه المعركة الجانبية بجلها المثار حول فهم القرآن وتفسيره .

وبقدر ما تقسو هذه التحديات ، تشتد حاجتنا إلى تأمين هذا الموقع الفكري الخطر ، من حيث لا نستطيع أن نسير مع حركة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور ، إذا ظل تأويل كتابنا الأكبر مباحاً لكل ذى هوى أو رأى ، يلوى نصوصه ليأ ، لكي تلبى حاجة في نفسه .

ومن حيث لا يُستصور ، وموجةُ الإلحاد في مدّها الجامح ، والصراع المذهبي في ذروة احتدامه ، أن يترك تفسير كتاب الإسلام بغير ضوابط مقررة ملتزمة ، يعرف بها إنسان العصر كلمة الدين في ختام رسالاته ، ويطمئن قلبه وعقله وضميره إلى حقيقة هذا الدين وقيمة عطائه ، فينجو من الحيرة التي نهكه وتضنيه ، إذ يرى تأويل القرآن في مهب أعاصير الأهواء وخضم الفتنة : « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . صدق الله العظيم

القرآن الكريم بين الفهم والتفسير

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »
صدق الله العظيم

« لا أوتى برجلٍ غيرِ عالمِ بلغة العرب ،
يُفسر كتابَ الله ، إلا جعلته نكالا » .
الإمام مالك

المقالات التالية ، نُشرت خلاصة منها بأهرام الجمعة في شهرى مارس وأبريل من عامنا هذا : ١٩٧٠ ؛ ردّاً لما نُشر في مجلة صباح الخير من مقالات بعنوان محاولة « تفسير عصرى للقرآن »

وقد تصور الدكتور المفسر ، أنه يعنى نفسه من مؤاخذته على التصدى للتفسير بغير علم ، بمجرد تغيير العنوان ، فجمع مقالات تفسيره في كتاب مطبوع بعنوان « القرآن ؛ محاولة لفهم عصرى للقرآن » .

وغاب عنه أن العبرة بالموضوع الذى تناوله تناول مفسر عالم ، يؤول النصوص ويفتى في الدين ، وليس تناول صحافى من كتاب القصص ، يعرض تصوراته الدينية ، ويتخيل ما وراء الغيب ! .

يبدو أننا في حاجة إلى أن نضع الحدود الفاصلة بين ما يباح وما لا يباح من تأويل كلمات الله في كتاب الإسلام. . .

بين حقّ كل إنسان في أن يفهم القرآن لنفسه ، وبين حرمة تفسيره للناس لا تبيحه لغير ذوى الدراية به . . .

بعد أن شُغلت الأمة بهذا الخلاف الطارئ ، وقيل فيما قيل إن التفسير مباح لكل من شاء .

والقرآن الكريم كتاب المسلمين جميعاً ، يسمعه كل مسلم فيتمثل معانيه ومراميّه ، على قدر استطاعته ، وفي حدود فهمه .

بل هو وراء ذلك كتاب الناس جميعاً ، المتدينين والملاحدين ، من حيث يجدون فيه الكلمة الأخيرة للرسالات الدينية . ومن حيث لا يعرف التاريخ كتاباً مثله ، غير من حياة البشرية ووجه تاريخها . فمن حق كل إنسان أن ياتمس منه ما يلبي حاجته إلى المعرفة ، ويقدم له عطاء الدين في ختام رسالاته .

وإذا كان المستشرقون ، من المسيحيين واليهود والملاحدة ، قد عكفوا على فهم هذا القرآن وقدموا منه لقومهم ما فهموه من كتاب هو أصل العقيدة الإسلامية ، ومناطق الوحدة الجامعة لأمتها في دينها وعقليتها المشتركة ومزاجها العام .

وإذا كانوا كذلك ما يزالون حتى اليوم يعكفون على دراسة كل تفسير جديد ليتبينوا متجه الفهم الإسلامى للقرآن . فالمسلمون أولى بأن يتقرر حقهم ، بل واجبه ، فى أن يفهموه على قدر استطاعتهم ، وأن يعرضوا عليه ما يشغلهم من قضايا الزمان .

وليس من الضرورى أن يكونوا على دراية بعلوم الإسلام وأسرار لغة القرآن ، بل إن عامة المسلمين لهم مثل هذا الحق ، حين يصغون إلى ما يتلى عليهم من آيات القرآن الكريم ، فيفهمها كل منهم فى حدود إدراكه ومعارفه « وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » .

ومحاولة فهم القرآن ، لا يمكن أن تتعرض لإنكار أو رفض ، إذا كانت من قبيل التماس عطائه المباح لخلق الله . على أن تبقى فى نطاقها الخاص المحدود ، فلا تتخذ ذريعة إلى انتحال التفسير بغير ضابط ولا قيد .

ومنذ بدأ تاريخ الإسلام ، كان المسلمون يفهمون من كتاب دينهم ما يلبي حاجات وجودهم ، ويلتمسون منه دليل مسعاهم ونور مسراهم حينما اعتكرو الليل وادلهم الظلام .

وعلى مسار الزمن ، كان هذا القرآن هو الذى يرهف وعيهم وينير بصائرهم . وكان الكتاب الذى يصل إلى الأميين فى مجاهل البيد وقرى الريف ونجوع البرارى النائية عن العمران

وبقدر ما فهموا منه ووعوا ، قاوموا عوادي الضلال وذرائع الضياع . ومهما يكن مستوى فهمهم ، فما أعوزهم أن يدركوا منه ما يحفظ عليهم كرامة إنسانيتهم ، وما يرفضون به البغي والطغيان ، والعبودية لغير خالقهم وحده .

وتتابع الأجيال ، كل جيل خلق لزمان غير زمان سلفه وخلفه ، وعطاء القرآن غير محظور ولا مقطوع ، يأخذ منه من شاء ما شاء ، دون حجر أو مصادرة .

* * *

لكن الأمر يختلف تماماً إذا اختلط فهم القرآن بتفسيره ، فيتصور بعضهم أن إباحة فهمه لكل الناس ، متعلمين وأميين ، مؤمنين وملحدين ، تعني إباحة تفسيره للناس دون قيد أو شرط .. لأن التفسير يقدم للناس فهم المفسر للنص القرآني . وغير متصور أن يتصدى لتفسير أى نص ، من لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته .

وهذا من المسلمات البديهية فى النصوص بوجه عام : يفهمها من شاء كيفما شاء ، لكن تفسيرها للناس والفتيا بها ، مقصور على ذوى الفقه بها والاختصاص .

وهؤلاء أنفسهم ، يتفاوتون بقدر درايتهم بأسرار النص . نحن المثقفين مثلاً ، نستطيع أن نقرأ أى نص قانونى ، وأن نفهمه بالقدر الذى تتيحه لنا عقليتنا ومستوى ثقافتنا ،

ولكن دوائر القضاء والتشريع ، لا تعرف بغير المتخصصين في القانون ، ولا تجيز لأى مثقف منا ، غير قانونى ، أن يتصدى لإفتاء الناس فى هذا النص ، أو الدفاع به أو الحكم بمقتضاه . ولا نعلم أن العمل القضائى فى أى مجال : نيابة ومحاماة وقضاء : أو صياغة ورأياً وفتياً . يباح لغير المجازين فى القانون .

ويتفاوت القانونيون بمقدار فقههم لأسرار نصوص القوانين ، إلى المدى الذى تقضى فيه محكمة عليا بالبراءة فى قضية سبق الحكم فيها بالإعدام ، مستندة فى نقض هذا الحكم على ملحظ دقيق فى نص القانون ، فات القضاة الذين نظروا فى القضية من قبل ، وأصدروا حكمهم فيها . . .

ومن القضايا ما يحتاج إلى خبرة طبية أو اقتصادية أو فنية لاعلم للقضاة بها ، فيندب الخبراء لفحصها وتقديم تقاريرهم عنها ، ويظل الحكم فى القضية لرجال القضاء وحدهم ، دون الخبراء من الأطباء أو المحاسبين أو المهندسين أو الزراعيين أو غيرهم .

* * *

والأمر أدق من هذا فى القرآن الكريم . .

من حيث لا تصح قراءته ابتداءً ، لمن يتصدى لتلاوته أو تفسيره ، من المصحف مباشرة ، دون التلقى من شيوخ القراءة . لأن القراءة فى المصحف ، غير متروكة للاجتهاد . كما

يتصور عامة المثقفين ، وإنما هي علم دقيق له قواعده في الضبط والأداء . والمعنى يختل تماماً ، لا بخطأ في الضبط اللغوي أو الإعرابي فحسب ، بل بالوقف حيث ينبغي الوصل ، وبالوصل حيث ينبغي الوقف ، وقد يضيع سر التعبير بالتفخيم أو الإشباع أو المد أو القصر في غير مواضعه .

من هنا كان الحظر التقليدي على طلاب حفظ القرآن : « أن يأخذوه من مصحفى » بمعنى النهى عن أخذ القرآن ممن قرأه في المصحف ، ولم ينقله تلقيناً بالقراءة المشافهة على شيوخ القراءة ، فيغيب عنه وجه الصواب في التلاوة والأداء .

ولا أحد يحجر على أى إنسان أن يقرأ من المصحف ، ولكن الحجر أن يتصدى بهذه القراءة المصحفية لتلاوته في الناس ، فضلاً عن أن يتصدى لتفسيره وتأويل كلماته !

وقد نعلم أن نظم الدولة ، في أى بلد إسلامى ، لا تجيز لقارئ مصحف أن يتلو القرآن في الناس ، في مسجد أو إذاعة أو مكتب لتحفيظ القرآن أو أى محفل عام ، فكيف بالتفسير لمن لم يصح قراءته ، فيسوق الآيات - في مقالات صباح الخير ثم في الكتاب المطبوع - سرداً متتابعاً بغير فواصل ضابطة للسياق محددة للمعنى ؟

وكيف يجوز في عاصمة إسلامية أن تنشر هذه القراءة المصحفية ، وفيها خلل الوقف حيث ينبغي الوصل ، وفيها إفساد

للدلالة بضياح ضوابط الابتداء والانهاء للآيات : تختلط به العبارات فلا يدري القارئ ماذا فهم المفسر المصحف من مقاطع الآيات وفواصلها ؟

* * *

وأخى من وجوه الدقة فى النص القرآن . أن الكلمة لا تعطى دلالتها القرآنية بمجرد الرجوع إلى دلالتها المعجمية التى تتسع لمعان عدة لا يقبلها النص .

ومعروف للدارسى اللغة ، أن الألفاظ يختلف استعمالها من عصر إلى عصر ، ومن بيئة إلى أخرى . ولاوجه لأن نُحْمِلَ كلمة فى أى نص ، دلالة لا يعرفها عصره ولا مجتمعها .

ولا جاز لنا مثلاً أن نفسر لفظ « قرية » فى آية : « وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » بدلالة عصرية على أبسط وحدة فى التقسيم الإدارى للمحافظات والمدن والقرى ، وهى دلالة يرفضها اللفظ القرآنى رفضاً باتاً ؛ وأن نفسر لفظ « ساعة » فى قوله تعالى : « يُقَسِّمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْشُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » بدلالاتها الاصطلاحية على ستين دقيقة . أو كما قال المفسر العصرى : [مجرد ساعة زمان ، وكأنهم كانوا فى غفوة أو نومة عصارى بعد أكلة ثقيلة] ص ١٦٥ .

وأن نفهم كل الأعداد فى القرآن بدلالاتها الرقمية المحددة فى علم الحساب ، فتكون ليلة القدر خيراً من ألف شهر على

التحديد ، لا تزيد عليها شهراً أو بعض شهر ، ويكون للمصطفى أن يستغفر إحدى وسبعين مرة . لمن نزلت فيهم آية التوبة ، خطاباً له عليه الصلاة والسلام :

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

والمفسر العصري لا يرى بأساً في أن يفسر لنا لفظ « يعيشو » مثلاً ، بلفظ [ينصرف] في آية الزخرف :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

حين ندرى من لغة القرآن، فرقاً بعيداً أقصى البعد، بين الأعشى والمنصرف ، فتفسير أحدهما بالآخر ، ليس إلا خبط عشواء! ويفسر قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام :

« فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى » .

بأن [المقصود بالنعلين هما النفس والجسد فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين : نفسه وجسده ، بالموت أو بالزهد ، والله يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح في عالم المادة !] ص ١٠٤ .

وذلك ما لاتعرفه لغة القرآن ، من أى سبيل !

وثالثة من وجوه الدقة في النص القرآني ، هي استحالة تفسير صيغة من صيغه أو عبارة من عباراته ، مبتورة من سياقها الخاص في الآية والسورة ، ومن سياقها العام في المصحف كله .
على نحو ما فعل المفسر العصري ، في استشهاده ببعض كلمات مبتورة من سياقها ، ليأخذ منها دليلاً فاسداً وشاهداً يحيله السياق .

كمثل عبارته في ص ٤٩ ، وقد تكررت في ص ١٤٥ :
[والله يقول عن كلامه ، عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ »]

بتر الجملة من سياقها ، فحملها على كلام الله ، في القرآن كله ، وإنما هي في التشابه منه فحسب ، بنص الآية :
« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ »

آل عمران : ٧

ومثل استشهاده . بقوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَلْبِطُ

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ « لَدِكُ الْجِبَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَبْتُورَةٌ مِنْ
سِيَاقِهَا فِي قَوْمِ مُوسَى :

« ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ
أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ،
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »

البقرة : ٧٤

ولاعلاقة لها إطلاقاً بذلك الجبال يوم القيامة .

وكثيراً ما يتورط المفسر العصري ، فيحمل آيتين أو أكثر
على معنى واحد ، ويستشهد بها لأمر بعينه ، وتكون إحدى
الآيات في سياق غير سياق الآية أو الآيات الأخرى .

كمثل سرده ثلاث آيات متتابعة — ص ٨٠ — في شواهد
لما يبدو نعمة ، وقد يكون في الحقيقة نقمة .

وإحدى الآيات — التوبة ٥٥ — في مناقف المدينة الذين
قعدوا عن الجهاد مع المصطفى في غزوة تبوك .

والثانية — المؤمنون ٥٥ — في سياق الحديث عن قوم موسى .

والثالثة — آل عمران ١٧٨ — سياقها في الكفار من قريش !

ويستشهد - في ص ٩٠ - لتحرير النفس من الشهوات يأتي :
التوبة ١١١ ، والبقرة ٥٤ :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ
لَهُمُ الْجَنَّةَ »

. « فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » .
باتراً سياق الأولى في وعد الله للمجاهدين ، والأخرى في
زجر عبادة العجل من بني إسرائيل .
ولا يمكن أن يجتمع المؤمنون المجاهدون ، والكافرون الظالمون ،
في سياق واحد ، إلا عند من لا يفقهون .

ويأتي في موضوع « الشورى » - ص ١٥٦ - بخمس
آيات سرداً ، مبتورة من سياقها ، واثنتان منها فحسب ،
يقبلهما موقف الشورى ، أما الثلاث الأخريات :

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . ق : ٤٥

« فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »

الفاشية : ٢١ ، ٢٢

« وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ »

آل عمران : ٦٤

فلاصلة لها بالشورى من قريب أو بعيد وإنما هي في حرية الاعتقاد . والآيتان الأوليان في الكفار ، والثالثة في أهل الكتاب ! وهذا الجهل بالسياق ، يتفاهم خطره إذا ما انتحل المفسر العصري لنفسه صفة المفتي مع جهله بأحكام الفقه والشرعة ، فيفتي الناس في الحلال والحرام ، بغير ما أنزل الله .

كَأَن يَأْتِيَ بآيَةِ الْمَائِدَةِ :

«فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ» - ٢٩ .

ويفتي المسلمون بها ، [بأنها تفسح المجال للعفو عن التائب ، فمن يسرق ويقول صادقاً : تبت ولن أسرق بعد الآن ، يعطى لولى الأمر مجالا لرفع الحد عنه : ومن سرق للجوع أو للحاجة ، لا يصح شرعاً إقامة الحد عليه] - ص ١٧٤

فيُسبطل بفتواه إقامة حدود الله ، ويجعل قبول التوبة لولى الأمر ، وهى في نص الآية لله تعالى ، سبحانه هو الذى يقبل التوبة من عباده !

ويأتى بقوله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » ، « وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » ، فيفتي بأننا :

[لو أخذنا الآية بظاهر حروفها دون أن يكون جوهر القضية واضحاً في الذهن ، فسوف نجد أن الحياة الطبيعية في زمننا ، زمن المينى جيب والديكولتيه والخابونيز والمصدر العريان والشعر المرسل والباروكات الذهب ، أمر صعب . والسير في شارع مثل عماد الدين أو فؤاد أو سليمان باشا (؟) سيراً مطابقاً لحروف الآية ، هو الأمر العسير] .

وجوهر القضية عنده ، لفهم الآية ، هو أن [مجرد إرسال النظر لاضرر منه ، ولكن الضرر فيما يجرى في القلب والعقل نتيجة إمعان النظر الخبيث] ٨٦ .

ولم يشرح لنا كيف يمكن التحكم في القلب والعقل ، إذا لم نسد الدرائع بالغض من البصر كما أمرنا القرآن ؟ بل استطرد في فتواه فقال ما نصه :

[ونحن قد نرى وجهاً فنهتف بالقلب إعجاباً : الله ! ونقصد الخالق الذي صور وليس المخلوق . فلا تكون هذه النظرة حلالاً فقط ، وإنما تكتب لنا حسنة !] ص ٨٧ .

ومثل هذه الجرأة على الفتيا بالحلال والحرام ، بتحريف كلمات الله عن مواضعها ، ما نشره في (بوطلجى صباح الخير : العدد ٧٤٤ ، ٦٩/٤/٩) رداً على قارئ استفتاه في إباحة تعدد الزوجات :

[الواقع أن تعدد الزوجات للمسلم مشروط بشرط صعب ،

بل مستحيل ، هو العدل « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ »
ويؤكد الله سبحانه استحالة هذا العدل : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » إنه الأمر الممكن الذى
لا يقدر عليه أحد . إننا مازلنا فى منطقة الزوجة الواحدة ،
والإباحة هى [إباحة فى الظاهر فقط] .
وجاز عند المفتى العصرى ، اجتماع النقيضين ، فى الأمر
الممكن ، الذى لا يقدر عليه أحد .

وتورط ، كمعادته ، فى بتر الكلمات من سياقها الذى
يلفت إلى تعذر العدل بين النساء ، وينهى الرجال عن الميل كل
الميل مع الهوى ، ترفقاً بالمحفوظة من النساء :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ
فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا • وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ
كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا » ١٢٩ ، ١٣٠

• • •

ورابعة من دقة النص القرآنى ، تتصل بما يبيحه المفسر
العصرى لنفسه ، من وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ،

فيقول مثلاً : المعمارى العظيم ، والمهندس الأعظم للكون ،
[والله هو سائق القطار الذى تفوق قدرته ومهارته مهارة جميع
السائقين] ص ١٨٨ ..

حين نتعلم ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية ، من مبادئ علم
أصول الدين : « أنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بغير
ما وصف به نفسه » فإذا جاء فى القرآن الكريم أنه تعالى :
الغنى والعليم ، لم يجوز لنا أن نقول مثلاً : الثرى المليونير ،
والأستاذ العلامة العبرى

وإذا سعى نفسه بالملك ، فليس لنا أن نسميه بالقيصر
أو الإمبراطور أو السيد الرئيس !

وإذا قال تعالى إنه « ذُو الْعَرْشِ الْعَظِيمُ » لم يجوز لنا
أن نقول : ذو التاج والصريحان .

ويقول سبحانه : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » فلا يجوز لنا
أن نقبس عليه فنقول مثلاً : ذراع الله مع أذرعهم أو فوقها . . .
وهذا ما يغيب عن العصريين فيما يتصدون له من الكتابة
فى القرآن والإسلام بغير علم ، فتجرى أقلامهم بألفاظ
وصفات لله تعالى، ينبوعها الحس القرآنى ، كسائق القطار ،
فضلاً عن عدم جوازها بتاتاً فى علم الأصول .

وشبهه بهذا ، تورط المفسر العصرى فى حديثه عن [المعمار

القرآني ، وسيمفونية سورة الفاتحة [ص ٧ ، ٨ .

ومن قبله تورط الزميل الشاعر « نزار قباني » في مثل هذا حين بدا له أن يكتب إحدى قصار السور القرآنية على نسق الشعر . وفاته أن القرآن قد أصرَّ على نفي وصفه بالشعر ، ردًّا على زعم المشركين أن محمداً شاعر ، وأن القرآن شعر . والله تعالى يقول :

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

« فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » .

* * *

وأخطر من هذا كله . أن يُفسر الدكتور العصري للمسلمين كتاب دينهم ، بنصوص من الإسرائيليات . بعد أن جاهد علماءنا طويلاً لتحرير فهمنا الديني من العناصر الإسرائيلية التي دسها اليهود علينا ، وحرصوا على توجيه الفهم الإسلامي للقرآن بمروياتهم الإسرائيلية ، حين تعذر عليهم أن يحرفوه كما حرفوا التوراة .

يقول في تفسيره العصري ؛ رجماً بالغيب :

[إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب المثال ، وألوان من الرمز . وفي العهد القديم يصف أشعيا يوم الرضوان قائلاً : يضع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن وليمة خمر ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه . وفي تراتيل القديس أفرام : « ورأيت مساكن الصالحين . رأيتهم نقطر منهم العطور وتزينهم صفائر الفاكة والريحان . وكل من عف عن الشهوات تلقتة الحسان في صدر طهور »] - ٦٧ .

ويفسر آية الدخان :

« فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى
النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ »

برؤيا يوحنا اللاهوتي :

[« ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان أتون
عظيم . فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر . وهذا الدخان
لا يقتل الناس وإنما يعذبهم خمسة أشهر ، وفي تلك الأيام
سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت
منهم » . إنها ظاهرة طبيعية ، يقول عنها القرآن كما يقول يوحنا
اللاهوتي] . ص ١٤٢ .

ويفسر الدكتور آية الكهف في يأجوج ومأجوج ،
تخميناً ، بحوار بين المارشال مونتجمري وماوتسي تونج ،
عن المخاوف من غزو الصين للعالم ، بعد أن يصبح سكانها ألف
مليون . ثم يستطرد من هذا التخمين فيقول :

[ومع هذا فلماذا لو فتحنا الإصحاح العشرين من سفر
الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتي عن يأجوج ومأجوج ، فلماذا
نراه يقول نفس المعاني ويشير نفس الإشارات :

« متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج
ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض . يأجوج ومأجوج
ليجمعهم للحرب ، وعددهم مثل رمل البحر » [ص ١٤٥

ويفسر آيات القيامة في القرآن فيقول :

[ونجد في رؤيا يوحنا اللاهوتي صورة مشابهة للقيامة — في القرآن — يقول : ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحها عن موضعهما] ١٤٧ .

ويفسر قوله تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

وَالسَّمَاوَاتُ» بما نصه :

[وفي ذلك يقول يوحنا اللاهوتي : ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة . لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد . . .] ١٥٠ .

* * *

فهل يتصور الدكتور المفسر ، أن فهمه للقرآن يكون عصرياً ، حين يفسره برؤيا يوحنا اللاهوتي ؟

فليعلم إذن ، أن يهود القرن الهجري الأول قد سبقوه إلى هذه العصرية منذ بضعة عشر قرناً ، ودسوا على الفهم القرآني شحنة من هذه الإسرائيليات التي يراها الدكتور مظهر عصرية ، ويراهها المنهج العلمي رواسب مما أقحيم على الفهم القرآني ،

ما تزال ناشبة في عقلية من يتصورون أنهم علميون ، من أبناء عصرنا الذى اقتحم مجاهل الفضاء !

ووجد المفسر العصرى سبيل الاقتحام لميدان التفسير سهلاً بالعدول عن ظاهر النصوص القرآنية ، إلى مجازيات عصرية لم تسمع بها مدرسة النبوة ولا عهد لنا بها في لسان العرب ولغة القرآن ،

حين يعلم فقهاء النصوص ، أن تأويل الحقيقة بالمجاز لا يصح بغير قرينة دالة على قصد العدول عن ظاهر النص وأصل المعنى !

لكيلا تَضِلَّ المقاييس !

« فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »
قرآن كريم

« ليس كلَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ للحديثِ
والفتيا جالسٌ ، حتى يشاورَ فيه أهلَ الصلاح
والفضل والجهة - الاختصاص - فإن رأوه لذلك
أهلاً ، جلس . وما جلستُ حتى شهد لي سبعون
شيخاً من أهل العلم أنى موضع لذلك »
الإمام مالك بن أنس

حرص المفسر العصري على أن ينشر مع مقالات تفسيره بالجملة ، كل ما تلقى من رسائل الترحيب والتأييد .

وعذره واضح ، في أن يلتمس من نشر هذه الرسائل ، ما يواجه به موقفى من قضية التفسير العصري ، فيما نشرت لى صحيفة الأهرام .

وكذلك يعذر الذين خلبهم هذا الأسلوب الجديد ، لا يدرون مزالق التعثر فيه والضلال .

ولا أرى أن أشغل أمتى بجدل عقيم حول هذا الخلاف ، بين من يريدون لها أن تفهم القرآن كما يبينه لها مفسر عصري ، ومن يشغلهم فهمه كما بينه نبي الإسلام وفهمته مدرسة النبوة .

لكنى لا أملك حق السكوت على شبهة خطيرة تفضل بها المقاييس وتختل الموازين ، فأدع الناس يقرعون ما نشرته المجلة لأستاذ جامعى - كان يشغل كرسي الأستاذية للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة - وأترك مقاله يمضى فى الناس ، دون تعليق .

لقد تطوع الأستاذ الدكتور عثمان أمين ، قافى بحق الاجتهاد فى تفسير القرآن ، لأى عصري دون دراسة أو مؤهل . بل إنه بارك كل خطأ يحتمل أن يتورط فيه مثل هذا المفسر ،

وقرر له الأجر من الثواب ، على أى خطأ .

ونقل نص عبارته — من عدد المجلة رقم ٧٣٦ بتاريخ
١٢/٢/١٩٧٠ — بعنوان : الاجتهاد فى القرآن واجب على كل
مفكر : [فرأى أن القرآن لم ينزل للمتخصصين ، وإنما نزل
للعالمين . وأن « ابن عباس » ، وهو حجة التفسير فى زمانه ،
لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن يملك من المؤهلات إلا الفطرة
السليمة ، والله يقول فى كتابه : « يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ »
والدكتور مصطفى محمود كما يتبين لكل قارئ منصف يملك
هذه الفطرة السليمة ، وهو مشكور على هذه المحاولة ، فإن
أخطأ كان له أجر المجتهد ، وإن أصاب كان له أجران] .

قرأتها ، فشعرت بأسى عميق :

القضية التى نحن بصدددها ، تتعلق بتفسير القرآن ، فكيف
ساغ الخلط بين التفسير ، وبين نزول القرآن للعالمين ؟
وكيف تصور ، أن الاجتهاد فى التفسير مباح للعالمين !
كأنه لا يدرى أن الاجتهاد فى أى مجال ، إنما يباح لذوى
الخبرة به والدراية ، أو « أهل الجهة » بتعبير السلف .

وعصرنا يؤمن بأن أصحاب التخصص ، هم الذين يجوز
لهم الاجتهاد ، فهل كان الاجتهاد مباحاً لعامة الناس فى تفسير

القرآن والفتيا في أحكامه وشريعته ؟
الذى أجمع عليه الأئمة ، أن الاجتهاد في ذلك محظور على
غير العلماء .

ويسرى الحظر على العلماء ، فيما هو من الغيبات ، أو المتشابه ،
ويحظر عليهم التفسير بمجرد الرأى ، دون استناد إلى شاهد
ودليل ، من صريح النص أو القياس .

ونص عبارة السيوطى فى (الإتيقان) :

« أما ما يجرى مجرى الغيوب ، كقيام الساعة . . . وكل
متشابه فى القرآن ، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ، ولا طريق
إلى ذلك إلا بالتوقيف بنص من القرآن والحديث أو إجماع
الأمة على تأويله .

« وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، فهو الذى
يغلب عليه إطلاق التأويل . وكل لفظ احتمل معنيين
فصاعداً ، فهو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه .
وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى » (١) .

وسبق القول فيما اشترطوا فى المفسر من شروط الأهلية ،
فلم يتصوروا قط أن يتصلدى للتفسير من أعوزته أدواته ،
وجعلوا علوم العربية من علوم القرآن التى لا يجوز أن يجهلها

مفسر . ونقلوا في ذلك كلمة الإمام مالك :
 « لَا أُرَوِّى بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَةِ الْعَرَبِ يَفْسِرُ كَلَامَ اللَّهِ إِلَّا
 جَعَلْتَهُ نِكَالًا » .

ومن أئمة السلف ، من تشددوا في موقفهم من إباحة الاجتهاد
 في غير الغيبى والمتشابه ، للعلماء أنفسهم ، فألزموا المجتهد باعتماد
 الشواهد والدلائل ، حتى يتقن التفسير بمجرد الرأى ، وهو
 عندهم غير جائز . قالوا :

« وَلَا يَجُوزُ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِمَجْرَدِ الرَّأْيِ ، وَالْاجْتِهَادُ مِنْ غَيْرِ
 أَصْلٍ . قَالَ تَعَالَى : ”وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ“
 وَقَالَ : ”وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ“ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ : مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ « (١) .
 بمعنى أنه أخطأ الطريق إليه .

قَالَ تَعَالَى : ”وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ
 إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ“ .

« فَمَا وَرَدَ بَيَانُهُ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فَفِيهِ كِفَايَةٌ عَنْ فِكْرَةٍ
 مَنْ بَعْدَهُ . وَمَا لَمْ يَرِدْ عَنْهُ بَيَانُهُ ، فَفِيهِ حَيْثُ تَذَكُّرُ أَهْلِ الْعِلْمِ

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى .

بعده . ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد « (١) .

وخلاصة أقوالهم في النهى عن التفسير بالرأى : أنه التفسير من غير حصول العلوم التى يجوز معها التفسير ؛ وتفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ؛ والتفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً . فيرد إليه بأى طريق ؛ والتفسير بالاستحسان والهوى . . . (٢) .

بل إنهم لفتوا ، مع ذلك ، إلى خطر التفسير بالرأى ، مع صحة الطريق إليه . فقد يحتمل اللفظ معنيين ، فيحتاج حمله على أحدهما « إلى معرفة أنواع من العلوم : التبحر فى العربية واللغة . ومن الأصول ما يدرك به حدود الأشياء وصيغ الأمر والنهى والخبر . والمجمل والمبين ، والعموم والخصوص ، والمقيد والمحكم ، والمتشابه والظاهر والمؤول ، والحقيقة والحجاز والصريح والكناية . ومن الفروع ما يدرك به الاستنباط .

« هذا أقل ما يحتاج إليه ، ومع ذلك فهو على خطر ، فعليه أن يقول : يحتمل كذا ؛ ولا يجوز ، إلا فى مُحْكَم اضطر إلى الفتوى به ، فأدنى اجتهاده إليه » .

وأكاد أسمع من يرفض أن نحتج بهذه المبادئ المنهجية ، فنقلها من تراث عصور غبرت ، لنأخذ بمبدأ الأستاذ الجامعى فى إباحة

الاجتهاد لمن شاء وله أجره ، أخطأ أو أصاب !
وأقول : إن عصرنا لا يمكن أن يزدري مبدأ من مبادئ
المنهج لأن عصوراً غابرة سبقت إليه . والدكتور عثمان أمين
فما أعلم ، قد شغل نفسه بمنهج ديكرت ، وبما فهمه من منهج
الشيخ محمد عبده ، وليس من أبناء هذا الزمان ! . .

و « ابن عباس » الذى احتج به لإباحة التفسير دون دراسة
أو مؤهل ، هو ابن عم المصطفى عليه الصلاة والسلام ،
وصاحبه ، وأحدُ كتّاب الوحي .

فهل صحيح أنه [لم يدرس الدين فى معهد ، ولم يكن
يحمل من المؤهلات للتفسير إلا الفطرة السليمة] ؟

الذى أعلمه ويعلمه تاريخنا ، أن ابن عباس درس الدين
الإسلامى فى «مدرسة النبوة» وكان نبي الإسلام نفسه ، هو معلمه
فى هذه المدرسة !

وكان يملك مؤهل الصحبة للمصطفى المبعوث بدين
الإسلام ، ويملك معها : أهلية كتابة الوحي ، وفناء عربيته ،
وأصالة فصاحته ! فلم يكن بحيث يفوته العلم بالقرآن ، أو تغيب
عنه أسرار لغته وبيانه ، أو يخلط بين المحكم منه والمتشابه ، ولا بين
المطلق والمقيد ، والعموم والخصوص ، والصريح والمؤول ،
والحقيقة والحجاز . . .

وكذلك كان السابقون الأولون من الصحابة رض الله عنهم :
 تلقوا القرآن مباشرة من المصطفى ، ودرسوا الدين الإسلامى
 فى مدرسة النبوة ، والتحقوا بأول معهد عرفه تاريخ الإسلام :
 « المسجد النبوى فى دار الهجرة » .

وبصحبته للمصطفى ، كانوا المرجع الأول بعده ، عليه
 الصلاة والسلام ، فى قراءة القرآن ، وترتيبه ، وسائر علومه ،
 كما أخذوها مباشرة عن مبلغ هذا القرآن .

وبالدروس التى تعلموها من المصطفى ، وحضروها
 فى مسجد المدينة ، كانوا المراجع الأصيلة للسنة النبوية من :
 قول ، وعمل ، وتقرير . . .

وبأصالتهم فى الفصحى وعراقتهم فى العربية ، كانوا
 معلمى جيل التابعين ، ومصدر توثيق لنصوص الفصحى من
 عصر صدر الإسلام وأواخر الجاهلية ، حين احتاجت الأمة
 إلى جمع تراث العربية وتدوينه ، كى يستنبط منه علماءها
 معجم ألفاظ الفصحى وقواعد نحوها وأساليب بيانها .

ولم يكن الصحابة ، مع ذلك ، على مستوى مماثل من
 الدراية والفقہ ، بل تفاوتت منازلهم وطبقاتهم .

فى عملية جمع القرآن ، كانت صفوة من حفاظهم وكتاب

الوحي منهم ، هي التي نُدبِت للعمل الجليل مع التفرغ والاختصاص .

وفي جمع أحاديث المصطفى - عليه الصلاة والسلام - كان علماء الحديث يشترطون لصحته : اتصال إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى أن يصل الإسناد إلى التابعين ، فالصحابة ، عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكانوا مع ذلك يميزون بين الأسانيد ، ولم نسمع قط أنهم سوا بين رواية الحديث ، بل الذي نعرفه من مبادئ علوم الحديث ، أنهم أنزلوهم منازلهم من العدالة والضبط ، بأدق المقاييس للجرح والتعديل .

فكيف تختل مقاييسنا العصرية ، فنحتج لإباحة التفسير ، بأن « ابن عباس » لم يدرس الدين في معهد ، ولم تكن لديه مؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

كأن مدرسة النبوة ليست معهداً نعرف به لدرس الدين !

وكأن المسجد النبوي لم يعرفه التاريخ ، المعهد الإسلامي الأول !

وكأن صحبة المصطفى ، وكتابة الوحي ، وأصالة العربية ، لا تدخل في مؤهلات ابن عباس لتفسير القرآن !

القرآن نزل للعالمين . ولم ينزل للمتخصصين

لكن تفسيره ليس مباحاً لكل الناس ، والاجتهاد فيه محظور على غير العلماء .

بل إن قراءته ليست مباحة للعالمين ، يقرؤه كل فرد باجتهاده ، وإنما أجمعت الأمة على قراءات سبع ، لأئمة من المتخصصين يفصلنا عنهم بضعة عشر قرناً .

وعلى تتابع الأجيال ، يلتزم المسلمون هذه القراءات ، ولا يجيدون عنها باسم الحرية ، ولا يرفضونها بشعار [يسقط الحمد والاحتكار] !

» * »

والأمر كذلك في الفقه الإسلامي المستمد من نصوص القرآن والسنة وما يقاس عليهما :

الإسلام ديننا جميعاً ، والقرآن نزل لنا جميعاً .

لكن باب الفقه لم يكن قط ، ولن يكون أبداً ، مفتوحاً

لكل العالمين الذين نزل لهم القرآن !

ولم يترك الأمر فيه مباحاً لاجتهاد غير الفقهاء ، ولا عليهم

أن يخطئوا فيما لا يفقهون !

ولمّا انعقدت الإمامة في الفقه لأئمة أربعة من المسلمين :
مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل .

جائز أن يقول فيهم أستاذ جامعي عصري ، مثل الذي
قاله في ابن عباس : [لم يدرسوا الدين في معهد ، ولم يكونوا
يملكون من المؤهلات إلا الفطرة السليمة]

فاسمعوا أيها الناس :

« الإمام مالك بن أنس » ، الذي أجمع المسلمون على إمامته
فما كان لأحد « أن يفتي ومالك في المدينة » ، لم يصل إلى هذه
المنزلة العليا من التخصص الفقهي — أو الاحتكار بمفهومه العصري
الغريب — بغير دراسة مؤهلة .

بل تعلم في مدرسة ، وسار على منهج ،

وتلقى من شيوخ انقطع لبعضهم سنين دأباً ،

ثم لم يجلس من تلقاء نفسه للفتيا والتدريس ، دون إجازة
علمية من فقهاء زمانه : أهل العلم والفضل وجهة الاختصاص .

أما مدرسته ، فكانت « المسجد النبوي بالمدينة » وفي
مكان منه حدده المؤرخون : الروضة الشريفة ، ما بين القبر
والمنبر .

وفي هذه المدرسة يقول « ابن شهاب الزهري » أحد شيوخ مالك : « جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة » .

وعدّ من هؤلاء الرجال سبعة من فقهاء أهل المدينة المنورة .
على أن « مالكا » لم يدخل هذه المدرسة إلا بعد أن تأهل لها في « مكتب تحفيظ القرآن » فأتم حفظه ثم أتقن تجويده ،
قراءة على « نافع بن عبد الرحمن » إمام أهل المدينة في القراءة
وأحد القراء السبعة الأئمة !

وأما عن منهج دراسة مالك ، فكان فيما حدده مؤرخوه :
يستوعب « كل ما يستعان به على فهم القرآن : من علوم العربية ،
وسنن الرسول — عليه الصلاة والسلام — وأحكام القرآن ، وعلومه ،
والسير والمغازي ، مع قدر من الحساب والرياضيات » .

وأما شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، فمنهم :

« ربعة بن أبي عبد الرحمن » الذي اشتهر بربيعة الرأي
وقيل فيه : ذهب حلاوة الفقه منذ مات ربعة .

و « ابن هرمز الأصم » الذي انقطع إليه مالك سبع سنين
لم يخلطه بغيره . وفيه يقول ربعة الرأي : « ما رأيت عالماً قط
بعينك إلا ذاك الأصم » ، ابن هرمز .

واشتهرت في بيتنا العلمية الإسلامية ، وصية ابن هرمز

لتلميذه مالك :

« ينبغي أن يورث العالم جلساءه قولَ : ” لا أدري “ فإن العالم إذا أخطأ ” لا أدري “ أصيبت مقاتلته » .
ومن شيوخ مالك : « ابن شهاب الزهري » أعلم الحفاظ بالحديث .

و « نافع ، مولى عبد الله بن عمر » الملقب بالإمام العلم ، وأحد رجال الإسناد في السلسلة التي تعرف بسلسلة الذهب . وفيه قال تلميذه مالك : « كنت إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر ، لا أبالي ألا أسمعه من أحد غيره » .

والإمام « جعفر الصادق » الذي تخصصه الشيعة بأسرار التفسير ، وتنسب إليه كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه من علم القرآن .

وغيرهم كثير ، لا أحصيهم هنا عدداً .

ونال « مالك بن أنس » إجازته العلمية من أهل الجهة ،

أي أصحاب الاختصاص ، فكانت شهادتهم له مؤهلاً لأن يجلس في مدرسة « مسجد المدينة » للحديث والفتيا .

قال : « ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة ، فإن رأوه لذلك أهلاً ، جلس .

» وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم ،
أنى موضع لذلك » .

هل يكفي هذا المثل ، إقناعاً بجرمة التخصص وكرامة العلم ، وإنصافاً لأئمة السلف الذين توهم الدكتور عثمان أمين أنهم لم يدرسوا الدين في معهد ، ولم يحملوا من المؤهلات للتفسير غير الفطرة السليمة ؟

أخشى أن يكون الأستاذ الدكتور مندفعاً في حماسه للتفسير العصري ، بسابق موقفى من كتابه فى (الجوانية) حين أنكرتُ منه بدعة « التفسير الجوانى للقرآن » فى مقال لى بالأهرام عقب ظهور الكتاب .
وأستغفر الله لى وله .

* * *

دفاعاً عن منطقِ عصرنا

وكرامةِ عقولنا

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً »
فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرْدِ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ،
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى . صدق الله العظيم
« سورة النجم »

نشرت « صباح الخير » كلمة لكاتب زميل من محرريها ،
 — ونعني هنا القضايا لا الأشخاص — يرجو فيها أن أغير
 موقفي من التفسير العصري ، [إذا أنا استلهمت في هذه
 القضية ضمير المفكر المشغول بمستقبل الإنسان ، لا عمامة
 المحترف المشغول بحماية مستقبله الشخصي ، واختصاصاته التي
 يأكل منها خبزها] .

وكأنما تصور السيد الزميل ، غفر الله له ، أنني أحمي كرسي
 الأستاذية الذي أشرف به في الجامعة : من منافسة زميله
 المفسر العصري !

أو كأنه وهم أنني أخشى تنحيي عن اختصاصي في
 الدراسات القرآنية وقضايا الفكر الإسلامي ، ليندب لها المفسر
 العصري مكاني ، ويدعي بديلاً عني أستاذاً زائراً لجامعات
 المشرق والمغرب !

ما علينا . . .

ولننظر معاً في فتنه هذه العصرية المدعاة والعلمية
 المغلوطة .

* * *

باسم العصرية ، أقول إن كرامة إنسان العصر تأتي

عليه أن يأخذ العلم ، أى علم ، من غير أهله . وتنكر أن تروج فينا دعوة إلى إهدار قيمة التخصص ، وإنا لنعلم علم اليقين أن عصرنا ما حقق شيئاً من تقدمه العلمى الرائع إلا بإيمانه بالتخصص . وإصراره على وضع الحدود التى تحول دون استباحة أى مجال للمعرفة ، لغير ذوى الخبرة والاختصاص .

وإذا جاز لطبيب أو فلكى أو زراعى ، أن يفسر للناس القرآن بما تيسر له فهمه منه ، جاز لمن يستطيع من علماء العربية وفقهاء الدين قراءة كتاب فى الطب أو الفلك أو الزراعة ، أن يفتى الناس بما تيسر له فهمه منها .

وإذا استباح كل عصرى أن يفسر القرآن للناس برأيه واجتهاده دون علم أو مؤهل ، بدعوى أن القرآن نزل للعالمين ولم ينزل للمتخصصين ، ساغ أن نعطل وظيفة المفتى وقضاة الشريعة ، فلا يحتكروا فقه الإسلام وهو ديننا جميعاً !

وساغ بالمنطق نفسه ، أن نوفر على الأمة ، وهى مثقلة بأعباء التنمية وتكاليف معركة الوجود والمصير ، أعباء كليات اللغة العربية والشريعة والدراسات الإسلامية ، من حيث لا حاجة لنا إلى من يحتكرون التخصص فى هذه العلوم أو يحترفون الفقه بها والفتيا فيها ، والعربية لغتنا جميعاً ، والإسلام دين الأمة كلها ، والقرآن نزل للعالمين !

بل يجوز أن نسد ذرائع الاحتكار والاحتراف ، فلا نسمح

لفئة من علماء القانون أن يحتكروا القانون المدنى ، وآخرين القانون الجنائى ، أو القانون الدولى ، أو الشريعة الإسلامية ؛ كيلا يجبروا على غيرهم من حملة إجازة الحقوق ، ويصادروا حقهم فى حرية الحركة ، ويضيقوا فى وجوههم مجال العمل . ولكى نأخذهم بمنطق « عمومية الثقافة ، واشتراكية العلم ، وحرية إنسان العصر » فلا يفكروا بعقلية من يدافع عن اختصاصاته الرسمية !

أى تزيف للعصرية يسمح بمثل هذا الإهدار لقيمة التخصص والمسخ لمفهوم الحرية والتقدم ؟ وهل ترانا نحقق عصريتنا ونأمن على مسيرتنا مع رواد الفضاء وغزاة القمر ، إذا نحن تحررنا من منطق زمن مضى لم يكن يسمح لأى مسلم « أن يفتى و مالك فى المدينة » وناديننا بسقوط هذا الجمود والاحتكار ، فأبجنا لمن شاء من العالمين الذين نزل لهم القرآن ، أن يفتح فى إحدى المجلات العصرية داراً للإفتاء فى الحلال والحرام ؟ !

باسم العلم ،

أعلن رفضه لمن يتصدون للفتيا بغير علم ولا مؤهل ، وينحوضون فى تفسير القرآن بعلوم عصرنا ، وقصارى ما نعلمه أن أى مفسر منهم ، له تخصص فى علم واحد من هذه العلوم ،

فلن قيل إنه يتحدث في سائرها بمعارفه العامة ، قلنا إن أى طالب بالمدرسة الثانوية ، له مثل هذا الإلمام العام بعلوم العصر . ولا يعوز فقهاء العربية والقرآن ، هذا القدر من المعارف المتاحة لعامة المثقفين ، وليسوا مع ذلك بحيث يكتبون في التشريح مثلاً بمعارفهم العامة ، وبدعوى عمومية الجسم البشرى الذى هو للناس جميعاً على سواء !

ولا أتردد في الجهر بأنه لا حرمة فينا لمن لا يحترم العلم ، بل تسقط كل حرمة له بمجرد خوضه فيما لا يعلم ، وجرأته على أن يقول : [أدري] فيما لا يدري !

قد أفهم أن يتكلم طبيب فيما يفهمه من آيات قرآنية يمكن أن تتصل بالطب ، وأن يكتب خبير زراعى فيما يفهمه من آيات القرآن في النبات والفاكهة والزرع ولواقع الرياح .

وأن يلتفت خبير كيميائى إلى آية القدرة الإلهية في تسوية بنان الإنسان لا يشبهه بنان غيره من ملايين البشر .

وأن يقف عالم جغرافى عند آية القدرة في البحرين يلتقيان : هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وبينهما برزخ لا يبغيان .

وأن يقف عالم فلكى عند آية القدرة في السماء رفعها الله بغير عمد ترونها ، وما في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من آيات لأولى الأبواب .

قد أفهم هذا كله ومثله معه ...

ولكن الذى لا أفهمه ، وما ينبغى لى أن أفهمه ، هو أن
يجرؤ مفسرون عصريون على أن يخوضوا فى كل هذا ،
فيخرجوا على الناس بتفاسير قرآنية فيها طب وصيدلة وطبيعة
وكيمياء ، وجغرافيا وهندسة وفلك وزراعة وحيوان وحشرات
وجيولوجيا وبيولوجيا وفسيولوجيا وتكنولوجيا . . .

إلا أن أتخلى عن منطق عصرى ، وكرامة عقلى فأخذ فى
المجال العلمى بضاعة ألف صنف معروضة فى الأسواق !
ولأ أن أتخلى عن كبرياء علمى وعزة أصالتى فأعيش
فى عصر العلم بمنطق قريتى حين يفد عليها الباعة الجوالون
بألف صنف ، يروج لها ضجيج إعلاني بالطلبل والزمر ،
عن كل شىء لكل شىء ، أو « بتاع كله » لئى فكاهتنا الشعبية
الساخرة بالادعاء !

باسم العلم ،

أرفض هذه الردة العقلية التى ترجع بنا الفقهرة إلى دهور
غابرة ، فتزين لنا أن تفكر بالمنطق الأسطورى الذى يتاقى فيه
إنسان عن ساحر من الجن ، كلمة السر التى تفتح له أبواب
الخزائن الموصدة وتبيح له كنوزها الخفية ، فتتصور أن من
العصريين من يستأثر بكلمة السر ، من مثل : « افتح
ياسمسم » فتفتح له خزائن علوم الدنيا والدين ، وتبيح له
خفايا الغيب وأسرار الحكمة ، فلا يلبث أن يخرج على الناس

وفي جرابه طرائف وغرائب من كل علوم العصر، ومعها مكتشفات من مجاهل الميتافيزيقا ، وما استأثر الله به من علم الغيب والساعة واليوم الآخر !

أرخص أن يسخر مفسرون عصريون بمنطقنا العلمي - نحن الذين تعلمنا أن نقول : "لا ندري" حين لا ندري - فيزينوا لنا أن نقبل تأويلات لهم يزيفونها بقناع العلم ، وأول ما يعيه تلاميذنا من مبادئ العلم ، رفضه الرجم بالظن . وأول ما يدرسون منهج المعرفة ، هو أن القرآن حرر العقل الإنساني من غرور الخوض في الغيبيات بغير علم ، وليست مما يخضع لتجربتنا . وإنما حسب المؤمنين منا أن يتوقفوا فيها عند الذي جاءهم به الدين الذي آمنوا به ، أما غير المتدينين ، فحسبهم أن يؤمنوا بالعلم الذي لا يبيح لأحد أن يخوض فيما لا يعلم ، ويحظر القطع بنبي أو إثبات في مجاهل ميتافيزيقية لم يصل العلم إليها .

وأرانا اليوم نواجه في عصر العلم ، من ينتحلون الدراية بكل علوم الدين والدنيا ، ومن يخوضون في الغيب فيفسرون لنا آيات القرآن في الساعة والقيامة بما لم يأت فيه نص ، ولا كشف عن غيبه علم !

وتبلغ بهم الاستهانة بعقليتنا العلمية ، ومنطقنا العصري ، أن يتصوروا أن هذا مما يجوز في عصر العلم :

« وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَسْتَعُونَنَا إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّ الظَّنَّ

لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا
وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ،
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
أَهْتَدَى .

* * *

فماذا عن القرآن الذى يواد لنا ، باسم العلم ومنطق العصر ،
أن نفهمه بتفسير عصرى يحررنا من الجمود على فهم الصحابة
للقرآن فى مدرسة النبوة وعصر المبعث ؟
ذلك ما يحتاج إلى بيان للناس ، فى مقالٍ يلى . .

بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ !

« مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ
مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

صدق الله العظيم

سورة العنكبوت

أستأنف القول من حيث انتهى بي المقال السابق إلى رفض الامتحان لكرامة عقولنا ومنطق عصرنا ، بهذه الرّدة العقلية التي ترجع بنا القهقري إلى منطق العصر الأسطوري ، فتخايلنا بكشف المحجوب عن عالم الغيب ، وتدعى امتلاك مفتاح السر لكل علوم الدين والدنيا والآخرة !

أو « بناع كله » كما تقول العامة بفطرتها السليمة التي لم يفسدها غرور ادعاء العلم بكل شيء !

وأفرغ اليوم لبيان المزلق الخطر ، الذي يتسلل إلى عقول أبناء هذا الزمان بالفكرة السامة ، تنأى بهم عن فهم مدرسة النبوة للقرآن ، وتحملهم على الاقتناع بأن القرآن إذا لم يقدم إليهم أسرار التكنولوجيا والبيولوجيا والأنثروبولوجيا ، والذرة والكمبيوتر والإلكترون . . . فليس صالحاً لزماننا ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية ، ويقبله منطقنا العصري .

فإذا اكتشف المفسر العصري ، من أسرار علمية لما [جاء على لسان ذلك النبي الأُمّي الذي لم يكن يعرف ، لاهو ولا قومه ولا عصره ، معنى كلمة بيولوجيا وجيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح وأنثروبولوجيا] ؟ من ٤٨ . وماذا يقدم لعصرنا من تفسير علمي لذلك [القرآن المذهل ،

أتى به رجل أمى لا يعرف القراءة والكتابة. . . بدوى راعى غنم
 فى بيئة بدوية من أجلاف البدو فى صحراء جرداء مقطوعة الصلة
 بالحضارات والعلوم [٢ ؟ ص ٢١٣ .

ماذا يمن به على أبناء هذا الزمان ، من عجائب [أسرار
 هذه العلوم التى غابت حتى عن « دارون » لمجرد أنه لم يريد
 الصانع الخالق المهندس وهى تهندس وتخلق] ؟ ص ٤٧ .

اكتشف لغزاة القمر ، فى آية يس :

« وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »
 أنها [تشبيه حرفى للقمر الذى لاخضرة فيه ولاماء
 ولا حياة] ص ٥٥ .

لنسمع بعد شهرين من نشره لهذا الاكتشاف ، أن العلماء
 السوفييت مايزالون يدرسون ما يبدو لهم فى الصور التى التقطتها
 « لونا » معالم عمران وآثار حياة !

واهتدى إلى [شفرة فواتح السور ، مثل كهيعص ، طسم ،
 حم ، عسق ، مما لم يقل لنا النبى لأنه يعلم له تفسيراً] ص ١٩ :
 فكان تفسيره العصرى لها [أنها حروف لها معنى فى ذاتها ،
 وكلمات لها سرها ومدلولها وإن غاب عنا فهمها . وهى علوم
 عليا سوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .

وكشف عن سر الخلق من « حمل مسنون » [أنه اتفاق غريب ودقيق مع اكتشافات العلم بعد ألف وأربعمائة سنة] ص ٥١ .

ثم ترك للناس أن يفهموا ما شاءوا ، من اكتشافات العلم عن خلقنا من حمل مسنون !!

واكتشف لما يشغل العصر من نظرية التطور ، تأويلا لكلمات الله : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » . بصياغة ممسوخة شوهاء لنظرية « دارون » لم يقل بها أى علم ، وترفضها العقيدة الإسلامية ص ٥٣ .

وقدّم إلى عصرنا من قوله تعالى : « أَنبَأَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا »

أنه [لا تفسير لها إلا أن تكون الأرض كروية دوارة ، نصفها ليل ونصفها نهار ، فإذا جاءت الساعة فإن نصف سكانها يكونون في ليل والنصف الآخر في نهار .] ص ١٤٦ .

على غير ما فهمته مدرسة النبوة ، وقد جرى لسان العرب على القول : آتيك ليلا أو نهاراً ، فلا يفهم منه إلا

التوقيت الزمني الذي لا يتعلق بكروية الأرض الدوارة !

واكتشف لعصرنا من أسرار الرياضيات وقوانين الطبيعة في القرآن ، ما لم يهتد إليه أحد من عصر النبوة إلى ما قبل ظهور التفسير العصري :

[فن التوحيد، نشأت كل أعداد العلوم والمعارف] ص ١٩٣ .
أما فلسفة العدد ، فيقدمها لنا من تأويل آية المعارج :
« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

بأن [معنى هذا أن أيام الله هي كما يشاء الله ، فإذا شاء يكون اليوم بألف سنة وإذا شاء يكون بخمسين ألف سنة . فهو ليس خاضعاً لزمته مثلما نحن خاضعون ، وإنما هو يخلق زمنه . وهذا شرح فلسفي رفيع لمعنى الأبدية أو زمن من لا زمن له] ص ١٣٨ .

ومن آية آل عمران :

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

استنبط المفسر العصري ما لم يخطر على بال أحد قبله ،

[من القوانين الإلهية التي نعرف الآن الكثير منها - ١ :

[قانون الضغط الأزموزي ، وقانون التوتر السطحي ، ونماسك
العمود المائي ، والتوازن الكهربائي والأيوني في المحاليل ، وقانون
التفاضل الكيميائي بين هورمون وهورمون فيكون أحدهما حاكماً
على الآخر : وقانون رفض الفراغ ، وقانون الفعل وردّ الفعل] ص ٩٨

فأنتي للنسبي الأسمى أن يعرف هذه القوانين ، فضلاً عن أن
يبينها للناس ، كما يبينها هذا المفسر العالم ؟

وماذا تبغى الأمة من العصر العلمي ، أكثر من هذا
السرد لقوانين الطبيعة والكيمياء ، من الذرة إلى الفلك ؟

وأضاف إلى علم عصرنا بأسرار الإلكترون :

[أنه محاسب في حركاته ، فما بال الإنسان العاقل وهو
بالنسبة للإلكترون كالحجرة والفلك بالنسبة للإنسان ، وقد
نفخ الله فيه من روحه فهو شيء عظيم وليس في هوان الذرة
ولا الإلكترون] . ص ٦٩ .

وأضاف إلى فهمنا لرحلة الحياة تفسيراً عصرياً يلائم عقلية
جيل التليفزيون :

[أنا وأنت وهو وهم ونحن ، كلنا مجرد صور تبرز وتختفي
على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التليفزيون

ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار . . . ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء ، ثم تعود فتزول هي الأخرى [

ص ١٨٣ .

وقدّم إلى علم الجرائم والحشرات ، مارآه يليق بعصرنا من رفض السببية بالتوكل : فإذا توكلنا عليه ، تعالى ، [فلن نخاف الحرب ولا القنبلة ولا المرض ، لأننا أدركنا وحدة الفاعل ، وأنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله . الميكروب لا يضر ولكن الله هو الضار النافع . وهو الذي يسلط الأسباب ، هو الذي خلق العقرب والسم والوردة ، وهو الذي ينشر العبير وينشر السم في العروق . . هو مناط الهلاك ومناط النجاة لا راد لقضائه ولا معقب لأمره ، هو الفاعل الوحيد وكلنا أدواته] ص ١٨٧ .

حين نقول ، نحن تلاميذ المدرسة القرآنية : إن الكون يجري على سنن مطردة ، وإن إرادته تعالى لا تتعلق بنقض سننه : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

وكان تفسيره العصري لآية النمل :

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

[أن إدراك النملة لسليمان أمر ممكن ، مثل إدراك سليمان لله !] ١٣٣ .

ولم يخطر على بالنا من قبل ، إلا أن النملة تحس بغريزتها موضع الخطر ، وتحاول تلقائياً أن تتقيه ، بهدى الغريزة وإلهام الفطرة ! واكتشف المفسر العصري لبيولوجيا الحيوان وديناميكا الصلب ، أن القرآن إذ أنث العنكبوت : «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا» فذلك من الإعجاز العلمي [لأن العلم كشف مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر . وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة أيام نزول القرآن] ص ٢١١ .

ويعرف المبتدئون من طلاب العربية ، أن القرآن جرى هنا على لغة العرب الذين أنثوا لفظ العنكبوت من قديم جاهليتهم الوثنية ، كما أنثوا مفرد النمل والنحل والدود ، فلم يقولوا في الواحد منها ، إلا نملة ونحلة ودودة ، وهو تأنيث لغوي لاعلاقة له بالتأنيث البيولوجي كما وهم المفسر العصري .

وجرى لسانهم كذلك على تأنيث الشمس والأرض والسماء والدار والسوق ، وكل ما يعرف في المصطلح اللغوي بالتأنيث المجازي ، دون أن يتصور من له أدنى اتصال بالعربية ، أن التأنيث هنا يحمل على التأنيث البيولوجي !

وقبل أن ينزل القرآن بآيات :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا » .

« قَالَتْ نَعْلَمُ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ أَدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ » .

« كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا » .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً

فَمَا فَوْقَهَا » .

كان أى عربى وثنى « من أجلاف البداية » ينطق بها على
التأنيث ، فلا نتصور أن فى ذلك إشارة علمية إلى ما اكتشفه
عصرنا من بيولوجيا الحيوان !

ثم تورط المفسر العصرى من هذا الوهم ، إلى وهم أشنع ؛
فأضاع كل السر البيانى للآية تضرب المثل لأوهن البيوت
بيت العنكبوت ، حين قرر ما وصفه بالحقيقة العلمية :

[وهى أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب
ثلاث مرات ، وأقوى من بيت الحرير وأكثر مرونة] . ص ٢١١

وعلى هذا التفسير العصرى ، لا يصلح بيت العنكبوت
مضرباً للمثل على الوهن ، لأنه ليس أهون من بيت الصلب ،
أو من بيت الحرير اتخذته دودة القز !

وقريب من هذا ، تورطه في تشبيه صلة الإنسان بخالقه ،
بالجبل السرى :

[والشرك في الحقيقة أشبه بانقطاع الجبل السرى الذى
يفصم الصلة بين الجنين ومصدر حياته .. بين الإنسان
والله] ص ٩١ .

وقد يعلم الأميون منا أن الجبل السرى يقطع عقب الولادة ،
إيداناً بانفصال الجنين عن رحم أمه . وبدء حياته مستقلاً
عنها . فهل يكون لنا بأمتتنا العلمية في التشريح ، أن نفهم
بهذا التفسير العصرى ، أن قطع الجبل السرى يبت صلتنا
بخالقنا ؟ وهل يكون لأبنائنا في كليات الطب ، أن يروا في
انقطاع الجبل السرى إيداناً بالموت وبت مصدر الحياة ؟

* * *

نحن علماء النصوص وأساتذة التخصص ، نرفض هذا
العبث بحرمة كتاب لا يحل لنا أن نفهمه إلا كما بيّنه الرسول
عليه الصلاة والسلام .

فهل يقبل علماء الكونيات والطبيعات هذه الردة العقلية
التي تهجم في كل واد ؟

وهل يقبل علماء العصر ، أن يلغوا قانون السببية ،
ويقولوا لأبناء هذا الزمان [لا تخافوا من الميكروب والسم ،
فال ميكروب لا يضر والسم لا يؤذى] ؟

ذلك ما لا أتصوره . . .

ولا يتصوره معى أبناء أسرتى المتخصصون فى الطب
والهندسة والقانون والموسيقا والرياضيات والعلوم السياسية !

ثم ماذا عن الغيبيات ؟

المتدينون منا ، يؤمنون بها كما جاءت فى الكتاب الذى
آمنوا به .

وفى دراستنا المنهجية . تلفت الطلاب إلى أن العلم يرفض
كذلك أن نخوض فيما لا علم لنا به .

ويأتى تفسير عصرى ، يحايلنا نحن أبناء عصر الفضاء
والقمر ، بعجائب وغرائب من علمه بالغيب ، وكشفه
الحجب عما استأثر الله بعلمه ، وليس لدى العلم التجريبي مجال
لأى قول فيه .

ومن دار الإفناء العصرية ، صدرت بتاريخ ٧٠/٤/٩ ،
فتوى المفسر العصرى بأن [كرسى الله هو قلب المؤمن ،
والعقل هو العرش ، والجسد هو اللوح المحفوظ الذى يكتب
الله عليه ، على الجينات الوراثية فى خلية الجنين ، يكتب قدر
المولود وحياته] !

والدكتور العصرى المفسر يقول لأبناء هذا الزمان: إن [فى

هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب
شهوداً [ص ١٢٢ .

وإن النذير للضالين بعذاب جهنم : [مثل تخويفك
لابنك حينما تحذره من إهمال نظافة أسنانه وتقول له : إذا لم
تنظف أسنانك بالفرشاة فإن الفيران سوف تأكل أسنانك . .
وبالطبع لن تأكل الفئران أسنانه] ص ٦٨ .

وإن جنة الآخرة [هى درجة ومقام ، فيها كل ما نعرف
على الأرض ولكن مع تفاوت هائل فى الرتبة ، مثل التفاوت
بين الزمن والأبد ، ومثل التفاوت الذى ذكرناه بين طعم
قطعة سكر ، وطعم اللذة الجنسية الحادة بالنسبة لبالغ] ص ٦٣ .
وإن ناموس القيامة باختصار [هو تجلى الله بذاته] ص ١٥١ ،
[وكل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو إلا ألوان من ضرب
المثال ، والتقريب والرمز] ص ٦٦ .

وإن ملائكة العرش الثمانية فى آية الحاقة :

« وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »

[لعلمها قوى كهر مغناطيسية هائلة ، ألا تمسك قوانين الجاذبية

بالشمس والنجوم فى فضاء الكون ؟] ص ١٢٩ .

وإن العلامة الأخيرة من علامات الساعة هى بأجوج
ومأجوج . يرجم المفسر المصرى فيها بالغيب ، فيربط

حواراً بين الماريشال مونتيجمورى وماوتسى تونج ، عن تكاثر الصين واحتمال غزوها للعالم، برؤيا يوحنا اللاهوتى . ثم يعقب تخميننا :

[ما هذه الأمة التى عددها كرمل البحر ، والتى سوف تحتشد لتحارب العالم عندما تم السنة الألف ؟ ولعله يقصد الألف الثانية ميلادية ، وباقٍ عليها الآن أقل من ثلاثين سنة !] ص ١٤٥ .

فيا من قرأتم آية يأجوج ومأجوج ، أو سمعتموها تتلى عليكم من سورة الكهف ، هل فهمتم من قريب أو بعيد احتمال كونها من أشرار الساعة، مع صريح نصها أنها من خبر قوم غابرين ، فى قصة ذى القرنين ؟

ويا علماء الرياضيات والطبيعيات ، هل يعنى رقم ثمانية عندكم ، قوى كهرومغناطيسية ؟

وهل تعلمون طلاب التشريح فى عصرنا ، أن قلب المؤمن كرسى الله ، وعقل الإنسان عرش خالقه ، وجسمه اللوح المحفوظ الذى يكتب على الجينات الوراثية فى خلية الجنين ، قدر المولود وحياته، ليقنعوا بأن القرآن صالح لهذا الزمان ؟

أما نحن أساتذة العربية والإسلام ، فلا نجرو على أن نسلكى الطلاب أبناء هذا الزمان ، بمثل ذلك التفسير العصرى

لغيبيات يفرض علينا إيماننا بالدين والعلم ألا نخوض فيها بغير علم، حتى لا يكون مثلنا « كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ » .

وهيات أن نسخر بعقولهم فتدعى العصرية والعلمية فيهم ، بكلمات ساذجة نلوكها عن كروية الأرض الدوارة ، والكهرمغنطيسية ومسيرة التطور والحيينات الوراثية في اللوح المحفوظ ، وقانون الضغط الأزموزي ، وجيلولوجيا القمر في العرجون القديم ، والحقيقة البيولوجية العلمية في التأنيث اللغوي للعنكبوت !

* * *

بين الدراسة القرآنية والتفسير العصري

- في المنهج
- في الموضوع

لن يفرغ للناس عجب إذا كشفت لهم عن وجوه التدليس
 فى التفسير العصرى للقرآن ، وبينت لهم ما فيه من ضلال
 الاقتباس بجهالة ، وعثرات النقل الغافل عن سياق النصوص
 المقتبسة وقبورها ودلالاتها .

فى سنة ١٩٦٩ - نشرت «دار المعارف بالقاهرة» كتاباً لى
 عنوانه :

(مقال فى الإنسان : دراسة قرآنية)

بعدها ، فى سنة ١٩٧٠ ، ظهر التفسير العصرى مقالات
 فى صباح الخير ، ثم فصولاً فى كتاب مطبوع .
 ولفتنى ، من أول وهلة ، ما بين الكتابين من صلة ،
 على التفاوت البعيد بين دراسة قرآنية تخضع لأدق الضوابط
 المنهجية الصارمة ، وبين تفسير عصرى يهيم فى كل واد ،
 ويضرب فى متاهة الغيبات ، لا يضبطه أى قيد .

وأستأذن القراء فى أن أعرض هنا ما فى هذا التفسير على
 دراسى القرآنية ، استكمالاً لوثائق هذه القضية الخطيرة ،
 وإضاءة لموقفهم مما ينشر فيهم باسم القرآن وفهمه العصرى .

* * *

وأبدأ بالمنهج :
 فى تفسير الألفاظ ، أرى الدكتور يردد فى أول كتابه

(ص ١٢) وفي آخره (٢١٣) كلاماً مما قررناه من تعذر تفسير كلمة قرآنية بأخرى من الألفاظ المقول بترادفها ، أو العدول بها على وجه التأويل والتقدير ، عن موضعها الذي جاءت به في البيان المعجز .

وهذا الأصل المنهجي الذي نلتزمه في الدراسات القرآنية ونلزم به طلابنا في الجامعة ، يتردد في التفسير العصري فلا ندري له موضعاً فيه ، وقد جرى المؤلف على أن يقحم على الآيات القرآنية تفسيراً لألفاظها في نص الآية ، فيأتي بها على هذا النحو مثلاً^(١) :

« إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ (أنصاراً) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » ص ١٢٦ .

« وَمَنْ يَغُشَّ (ومن ينصرف) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (مصاحب وملازم) » ص ١٢٦ .

« قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي (عهدي) قَالُوا أَأَقْرَرْنَا » ص ٦٠ .

(١) هذه الآيات ، وكل ما في التفسير العصري من آيات ، جاءت فيه

بغير ضبط ، ودون فواصل أو علامات ترقيم !

« فَلَوْلَا (فلو أنهم) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (يائسون تماماً) » ص ٧٩ .

« فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ (على سليمان) مَا ذَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (عصاه) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (عذاب التسخير لسليمان) » ص ١٣٢ .

« قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا (أجرا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ (كتل الحديد الكبيرة) حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبى الجبل) قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ

أَتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (نحاس مذاب) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا « ص ١٤٣ .

« إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ (أى انشقت) »

« وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (أى فجرت نارا) » ص ١٤٧ .

« وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا (لَا تَدْفَعُكُمْ الْكِرَاهِيَةَ إِلَى تَحَامُلِ) اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » ص ١٧٦ .

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ (وَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ حِفْظُهُمَا) » ص ١٩٣ .

وذلك الخلط بين كلام الله وكلام البشر لم يجرؤ عليه أحد فيما أعلم . ولا عهد لنا بمثله في أى كتاب إسلامي . وقد كان علماؤنا يتشددون في إنكار مثله في رواية الحديث ، حفظاً لمثله من أن يختلط بكلام للراوى ، ولم يخطر لهم على بال ، أن ذلك مما يمكن أن يقع في آيات القرآن .

وفى التأويل :

أرى الدكتور يردد بين حين وآخر ، كلمات متناثرة من ضوابط منهجنا الملتزم بصريح النص وحكم السياق ، فتبدو غريبة على أسلوبه العصرى وطريقة تناوله .

من ذلك مثلاً ، أنه يردد ما لفتنا إليه من خطر التفسير الباطنى والعدول عن ظاهر النص ، وما أوجبنا من ضرورة الالتزام بدلالات الألفاظ القرآنية كما يعطيها الاستقراء الكامل لكل مواضع ورود اللفظ فى المصحف ، والاحتكام إلى توجيه صريح السياق .

فيقول مثلاً فى إنكار تأويل البهائية : [... وهو أمر يكشف خطورة التفسير الباطنى للقرآن ، وخطورة إغفال ظاهر الحروف ومقتضى الكلمات والعبارات ، وكيف يمكن أن تؤدي أمثال هذه التفاسير إلى اقتلاع الدين من أساسه . . . وهذا ينتهى بنا إلى موقف فى التفسير لا بد من التزامه ، هو الارتباط بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهر] . ص ١٢٢ .

على حين يوغل بنا فى التأويل ، إلى أبعد مما ذهبت إليه البهائية والباطنية . لقد أنكر على صاحب البهائية مثلاً أن يؤول غم موسى بشعبه ؛ فى الآية : « هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي » .

فهو يكون تأويل الغنم بالشعب ، أبعد شططاً من تأويله
للتعنين [بالنفس والجسد] في آية طه ، خطاباً لموسى :

« فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى » ؟

ويفسر بشرية المصطفى ، في آية الفرقان :

« وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي
الْأَسْوَاقِ » .

بما نُسبه إلى الصوفية ، من تأويل هذا المظهر لبشرية
المصطفى [بأنه الستر الإلهي ستر به سر النبوة في ثوب بشري
عادي لرجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، حتى
لا يتبدل السر بالإظهار والاشتهار !] ص ١٠٢ .

ويفسر آية الزمر ، خطاباً للمصطفى عليه الصلاة والسلام :
« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » .

بما نصه : [أفق إلى نفسك فأنت غير موجود ! أنت
ظل ، شأنك شأن الظل . موجود على الأرض ما دامت
الشمس في كبد السماء ، فإذا غربت لم يعد لك وجود . واختفت
معك كل الظلال التي كانت تتناول بأعناقها إلى جوارك]
ص ١٨٤ .

ويقول في تفسير « كلمة التقوى » من آية الفتح .

[وهي كلمة النذير بأن كل شيء إلى فناء ، وبأن

كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ومدينة مزيفة مصيرها
أن تفك وتعاد إلى علبتها . . .] ص ١٨٦ .

ويفسر [شفرة] فواتح السور بقوله :

[وهى علوم عليا سوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .
ويفسر آية العنكبوت :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »

فيقول فيما يقول :

[ولهذا السبب نفسه ، لعدم القهر والجبر أخفى الله نفسه
فى الإنجيل ، وأخفى نفسه فى القرآن (١٩) لأنه لم يرد أن يلجئنا
بالتجلى القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قهراً] ص ٣٧ .

* * *

على أن ذلك كله ، ومثله معه ، لا يقاس بما جاءنا به
التفسير العصرى من عجيب التأويل لغيبات عن حياة لنا
سابقة قبل النزول فى الأرحام ، وعن شهود الجن والشياطين
والملائكة ، وعن غيب الساعة والحياة الآخرة . . .

وهى تأويلات نعرضها على ما يقابلها من دراسى القرآنية ،
ونحتكم فيها إلى الكتاب المحكم ، لنرى مبلغ التزام المفسر العصرى
بما رده من قاعدتنا المنهجية فى [الوقوف عند حرفية العبارة
ومدلول الكلمات الظاهر] .

في الموضوع :

موضوع كتابي (مقال في الإنسان) كما لخصته على غلافه ، في طبعة المعارف سنة ١٩٦٩ :

« دراسة قرآنية لقصة الإنسان من المبتدأ إلى المنتهى ، تستقرى آيات البيان القرآني في الحياة والموت ، وتستجلي فيه ملامح الإنسان بكل كبريائه وعظمته وقوته ، وكل غروره وهوانه وضعفه . وتتدبر ما يحمله في رحلته العابرة بالدنيا من مسئولية أمانته الصعبة ، وما يواجهه من مشكلات الوجود وهموم المصير » .

وكنت بحيث لا أشق على القراء بعرض مقابلة موضوعية بين عطاء هذه الدراسة القرآنية المنهجية ، وما يقابلها في التفسير العصري ، اكتفاء بأن أشير إلى مواضع المقابلة .

غير أن ما يأتي في كتابي مباحث مستقلة متميزة ، يتناثر في فصول الكتاب العصري :

فما كتبه عن الحوية والرق مثلاً ، جاء به الدكتور في فصل (لا كهنوت) .

والذي قدمته في « حرية العقيدة » جاء به موزعاً على ثلاثة فصول : (لا كهنوت ، رب واحد ، لا إله إلا الله) .

وما قلته في مبحث « جدل في البعث » جاء بعضه في فصل
(البعث) وبعضه في (إعجاز القرآن) . . .

وإذ لا سبيل لسواي مع هذا التشتت ، إلى أن يهتدى
إلى مواضع الأخذ والمقابلة ، أجدني مضطرة إلى أن أستخلصها
بنفسي ، بقدر ما يحتمله ضيق المجال المحدود .

(١)

الغيب

« قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ،
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا
مَسْنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .
(قرآن كريم)

[وفي هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين
وعلم الغيب شهوداً] (التفسير العصري : ١٢٢)

* * *

حظر القرآن الخوض في الغيبات بغير علم .
وحين أباح الأئمة من علماء السلف الاجتهاد في التفسير
لأهل الفقه والدراية ، أخرجوا الغيبات من مجال الإباحة ،
ونصوا على منع الاجتهاد في تأويلها ، وإنما حسبنا أن نتوقف
فيها على ما جاءنا به الدين الذي نؤمن به .

وكذلك لا يميز العلم أن نخوض في الغيبات بغير علم ،
فكل ما يقال فيها لا يعدو أن يكون حدساً افتراضياً أو رجماً
بالظن .

ومن (مقال فى الإنسان) :

«فتجافى العلم عن هذه الغيبيات ، التزام بمنهجه التجريبي الدقيق الذى يرفض أن يقول فى الغيبيات بنفى أو إثبات ؛ والعلم الحديث يدرك حق الإدراك أن وراء الظواهر الكونية أسراراً خفية ، لكنه يتجه ببحوثه إلى دراسة الظواهر وكشف الخصائص تاركاً أسرار الميتافيزيقا حتى يهتدى إليها فتخرج من نطاق الغيبيات ... ويسقط عنها الحرج الدينى والحرج العلمى ، كلاهما » ص ١٦٠ .

وتقرأ مثل هذا الكلام ، فى التفسير العصرى ، عما فى القرآن من [طلاس من الغيب المحجب يحار فيها عقلا ولا يملك لها نقياً ولا تأييداً] ص ١٢٥ .

[والاجتهاد مباح فى أمور الدنيا ، لكن القطع فى أمر غيبى أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن ، فضلاً عن أنه ليس فى مقدورنا] ص ١٤٥ .

[فالروح غيب ، وما بعد الموت غيب ، ولا نملك فيه إلا ذلك الخبر الذى أتانا به نبينا الكريم من لدن عالم الغيب الذى يرى ما لا نرى ويعلم ما لا نعلم] ص ١٦٩ .

ونراه مع ذلك التكرار لحظر الخوض فى الغيبات ،

والاقتصار فيها على ما أتناه به القرآن ، يقتحم الغيب ويأتى بعجائب وغرائب من بدع التأويلات ، توغل بنا من حياة كانت لنا قبل النزول فى الأرحام ، وتؤكد أن فى هذه البشرية مَنْ كُشف له علم الغيب ، وتقرر أن المفسر العصرى [يكاد يضع يده على الحقيقة] من غيب الساعة والآخرة .

* * *

وأبدأ بقصة الخلق ، وخلاصة ما أعطته دراستى القرآنية :

« تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم ، أبى البشرية .

« ولا مجال هنا لجدل حول نظرية التطور وخلق آدم ، فأدم فى النص القرآنى هو الإنسان الأول الذى بدأ منه طور البشرية والقرآن الكريم يشير إلى أنه تعالى قد « خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً » . ويلفت إلى مرحلة زمنية ، لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً :
 ” هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً “ .

« كما لا مجال للتعرض لما خاض فيه المفسرون من تفصيلات لكيفية خلق آدم من تراب أو طين : فحسب الإنسان منا ، لكى يؤمن بالقدرة الخالقة ، أن يلتفت إلى الأرض : ندفن

جثث موتانا في ترابها ، ففتحلل عناصرها ذائبة في التراب الذى يتغذى الأحياء من نباته ومعادنه وباقى عناصره . . . ولا يحتاج الإنسان إلى أكثر من هذا الالتفات ، ليدرك أننا خلقنا من تراب ، وإلى التراب نعود ، على المشاهد المنظور والواقع الحسى المدرك :

” الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ، كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى “ (١) .

سورة طه : ٥٣ - ٥٥

وفى التفسير العصرى :

[فإذا قال الله : خلقناكم ثم صورناكم . . . ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . فغنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا ، وأياماً بزمان الله الأبدى . « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » ، ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم

صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً » إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوى فيها شيئاً يذكر [ص ٥٢ .

لكن هذه الخلاصة ، التي لا تبعد كثيراً عما قلتُ آنفاً ، تنوه في حشد من التأويلات لغيب مجهول ، كنا نعيش فيه قبل الآدمية ، وتفصل الحديث عن خروج آدم من طين المستنقعات ، ردة وانتكاساً وعقاباً على خطيئة !

وقصة الخلق عنده ، تبدأ بصفحات عن نظرية « داروين » في أصل الأنواع ختمها الدكتور باكتشاف [الخطأ الذي وقع فيه داروين في نظريته عن النشوء والارتقاء ،] مجرد أنه ، لا يرى يد الصانع الخالق المهندس وهي تهندس وتخلق [ص ٤٧ .

ثم قدم لنا ، تأويله العلمي لقصة الخلق التي غابت عن داروين ، وكل العلماء ، كما وغابت عن عصر النبوة ، قال : [إن القرآن يزودنا بما هو أكثر من كل ما قاله العلم . فيطلعنا على بعض الغيب . على ما حدث في الملكوت في الملأ الأعلى قبل الخلق الأرضي لآدم ، فيروى لنا مرحلة سابقة لهذا الخلق : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

[إن ما حدث من انبثاق آدم من الماء والطين على مراحل تطورية في الأرض، كان ردة وكان انتكاساً وعقاباً لخطيئة سوف نفهم تفاصيلها] ص ٥٥ .

[لقد منح الله آدم الحرية، وخيره بين الدخول في طاعته فيكون شأنه شأن النجوم في أفلاكها تجرى على نواميس الله الموضوعه ، وبين أن يكون حرّاً مشئولاً فيحمل الأمانة ... ولكن الإنسان اختار أن يكون حرّاً مشئولاً وأن يخرج على الأمر الإلهي بإغراء إبليس ، فأكمل من الشجرة^(١) .

[وكان العقاب هو الطرد والإهباط من تلك الجنة إلى الأرض . والنزول إلى « أسفل سافلين » ، وهي هاوية التيه المادى، إلى طين المستنقعات . هذه المرة إلى مجرد جرثومة في طين الأرض، إلى نقطة بدء أولى ، من الصفر .

[وكان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادى في انبثاق متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا ، وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا ، صعدا إلى الإسفنج والرخويات والقشريات ... إلخ إلخ ،

(١) قابله على مبحث (أمانة الإنسان) في كتاب مقال في الإنسان ، ترى ألا صلة لهذه الأمانة بالشجرة المحرمة .

في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية. . .

[إنها رحلة أشبه بالخروج من الرحم ، من رحم الأرض ذاتها وهي الرحلة التي يعطينا الجنين تلخيصاً سريعاً لها في تسعة أشهر. «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ» .
[وَأَنَابَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى تَوْبِهِ بَأْنِ هَدَاهُ فِي رَحْلَتِهِ الدَّامِيَةِ وَأَخَذَ بِيَدِهِ خَارِجاً مِنْ رَحِمِ الْأَرْضِ وَمِنْ طِينِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ حَتَّى وَقَفَ مُنْتَصِباً عَلَى قَدَمَيْهِ مُحَاكِاً آدَمَ الْأَوَّلَ] ص ٥٩ .

هذا هو التصحيح العصري لنظرية دارون، يردنا باسم القرآن إلى الأمييا والرخويات والقشريات... تفسيراً لأسفل سافلين ، ثم يقرر بعدها في تأويل آية الانشقاق : «يَأْيُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ» :

[هناك إذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذي خلقه الله في أحسن تقويم ليكون إلى جواره في الملكوت ، وآدم الأرضي الذي انبثق من ظلام المادة ومن رحم الأرض ومن أسفل سافلين ، حيث ألقى به مبعداً مطروحاً
إن كلا منا نحن ذرية آدم قد عاش هاتين المرحلتين] ص ٥٩
[وهي آيات كواشف ، تشير إلى مرحلة روحية عشناها في الملكوت قبل النزول في الأرحام ، وإلى أنه كان لنا ثمة وجود

قبل الميلاد (!) شأننا في ذلك شأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم أنزل إلى أسفل سافلين [ص ٦٠ .

[ويقول الله في القرآن لمحمد : « قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، وهي كلمات تعني سبق الوجود المحمدي على جميع الأنبياء . وهي إشارات تدل على وجود روحى سابق . . . كنا فيه في عالم ملكوتي قبل أن ننزل إلى الأرحام [ص ٦١ .

* * *

وأعترف مع الدكتور، بأن هذا كله [مما لم يقله لنا أى علم] فهل هو مما قاله القرآن ؟

وهل من [الالتزام بحرفية العبارة ومدلول الكلمات الظاهرة] أن آدم خرج من الجنة ، مجرد جرثومة في الطين ، تطورت عبر خمسة آلاف مليون سنة ؟

إنه على أى حال ، ليس بأعجب من التأويل البيولوجي للشجرة المحرمة ، كما جاءت في قصة الخلق من الفهم العصري للقرآن :

[فإذا عدنا إلى الشجرة لنسأل ما هي ؟ أم هي رمز أم حقيقة ؟ وجدنا أمامنا اختلافاً كبيراً . . . وأنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا حينما أخذت الكائنات

الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتكاثر فكتبت على نفسها طارئ الموت .

[كان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة فهوت من الخلود إلى العدم ؛ وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في الجنة . وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح الجنسي . فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لاستمرار الحياة . . .

[ويقال إن شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو التناسلي . كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة كمحاولة للخصاء ، تقززاً مما فعل ، ثم أصبحت تقليداً دينياً من يومها . ولا مانع من أن تكون الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدي إلى إطلاق الهرمونات واشتعال الرغبة الجنسية ، ومن ثم تلقى بآدم إلى المخالطة الجنسية ، وتكون الآية صادقة حرفياً ومجازياً] ص ٦٣

الغريب حقاً ، أن الدكتور ختم هذه التأويلات القطعية لقصة الخلق وبيولوجيا الشجرة بقوله :

[ولا يمكننا القطع في هذه المسائل ، ويجب أن نقول إن الشجرة ما زالت لغزاً ، وإن قصة الخلق ما زالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر من الاجتهاد] ص ٦٣ .

وفى تأويل الجن والشياطين والملائكة :

لاموضع لمقارنة بين عطاء دراسى القرآنية ، وبين جديد التأويل العصرى . فهما مختلفان تماماً . على أن المقارنة تجدى على بيان جوهر الفرق بين عقليتنا ومنطقنا نحن تلاميذ مدرسة النبوة ، وبين عقلية طبيب صحافى ومنطقه العصرى فى فهم القرآن وتأويله . فى (مقال فى الإنسان) ، لم أزد على قولى فى الجن :

« لفظ الإنس يأتى دائماً مع الجن على وجه التقابل ، يطرد ذلك ولا يتخلف فى كل الآيات التى ورد فيها ذكر الإنس ، وعددها ثمانى عشرة آية .

وملاحظ الإنسانية هنا ، بما تعنى من عدم التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلتها بالجن ، فى دلالتها أصلاً على الخفاء الذى هو قرين التوحش .

« وبهذه الإنسانية يتميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لاتتنمى إلينا ولا تحيا حياتنا . وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا إلا فى تهاويل الظلمة وتصورات الوهم . وإنما يتسع اللفظ - بدلالته الأصلية على الخفاء ، ومقابلته للإنس - لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مدركة وراء حدود عالمنا الذى نعيش فيه ، ولا ينخضع للسنن المعروفة

التي توجه حياتنا ونحكمها .

« وبهذا المدلول الرحب ، تنتفي شبهة الخرافة التي تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد في وجود الجن ، إذا قدرنا أن الكشف العلمية الحديثة لاتنتفي احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش في عوالم خفية كالكواكب ، لانزال نجهلها وإن لم نكف عن السعي إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » ص ١٤ .

* * *

أما الملائكة ، فقُصارى ما قدمته في مبحث : خليفة في الأرض ، من (مقال في الإنسان) :
« في مستهل العهد المبدئي نزلت سورة البقرة ، وفيها آية خلافة آدم في الأرض :

” وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ “

« والآية ، ومعها آيات خلق آدم ، صريحة الدلالة على أنه مسبق بأنواع أخرى غير بشرية ، منها هذه الملائكة التي لا ندري كنها ولا يأذن لنا العلم في أن نخوض فيها ، وهي من

الميتافيزيقية التي لاتزال خارجة عن اختصاص العلم الحديث .
 » وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها بأكثر مما تلاه

علينا كتاب ديننا . ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على آدم ، وقد عاشت في عالمها الذي لا يحيط به إدراكنا ، خاضعة لنواميس غير التي تخضع لها الآدمية ، تسيرها الإرادة العليا على وجه التسخير ، فتأتمر بها في خضوع وإذعان ، دون أن تبلى بجزرية إرادة واختيار ، ودون أن تهيشها طبيعتها لعلم أو خلق كسبي ، بل دون أن تدرك ضرورة ما لوجود طور جديد من المخلوقات ليس له مثل خضوعها ، وهي المذعنة للتسخير المطلق ، والكون يسير قبل هذا الآدمي ، والملائكة فيه رسل ربهم :

” لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ”

» والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية :

ليست جبرية تسليم وطاعة تسخير ، ولا هي محض شر وشهوة تمرد وإصرار على الغي والضلال ، وإنما هي تحقيق للذات عن وعي وتمييز وإرادة .

» هي تجربة الابتلاء يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى ، ثم تصهره التجربة وتحاسبه النفس اللوامة فيندم ويتوب . ويمضي آدم ليبارس خلافته في الأرض ، فلا تكون حياته كلها ، من بدء خلقه إلى آخر وجوده الدنيوي ، إلا معركة متصلة

بين الخير والشر ، يحتمل فيها تبعة عمله ومسئولية اختياره وأمانة إنسانيته .

« وعصمة الملائكة عن إجبار ، دون خيرية البشر عن اختيار .

كل خير من الإنسان ، كسبي لا تحظى به الملائكة المسخرة .
وأى شر تنسخه التوبة الصادقة وتردعه النفس اللوامة .

أوهذه هي الآدمية السوية . وحين يشذ عنها بعض أفرادها فيقترف الشر شهوة وهواية ، دون رادع من ضمير ، فإن هذا الشذوذ يخرج بهتل هذا الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسحه شيطانا مريداً من حزب إبليس اللعين . من هنا لم يكن فيما توقعته الملائكة لآدم من إفساد في الأرض وسفك الدماء ، ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها ، دون الملائكة التي تسبح بحمد الله وتقديس له . فالابتلاء يقتضى أن يكون أمام آدم شرور تغويه ، لكى تمتحن طاقته وتصهر معدنه . وأمانة الإنسان تعنى أن يواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر ، ليكون خيره له وشره عليه ، وهو ما خلق ليعيش في ملكوت الملائكة وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ، والخير المحض لا يبرر الخلافة ، إذا كان جبرياً بغير إرادة واختيار » ص ٢٦ .

وقد تجدد منه في التأويل العصري ملتقطات مبعثرة بين (مخير
أو مسير) و (قصة الخلق) عن تسخير الملائكة وتمرد إبليس
وأمانة الإنسان وتبعات التكليف ومهالك الغرور ، وابتلاء
الإنسانية بالخير والشر . . .

ولكنك تجد معه الحديد المبتدع من مثل هذه التأويلات
الغيبية التي لم تصل إليها عقليتنا :
في تفسير آيتي الزخرف :

« وَمَنْ يَعْمُرْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا
فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » .

« يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ »
يأخذ منها المفسر العصري ، مما غاب عن عصر النبوة ،
شاهداً على أن الأرض كروية تدور ، ثم يستطرد قائلاً :
[وهذا المثال يدل على مدى الخفاء في القرآن ، وأن
فهمه يحتاج إلى كل الجهد . . . وأن مثل هذه الآيات ما كان
يمكن أن تفسر في عصرها وزمانها ، وهذه إشارة بأن حكاية
القرين من الجن ، هي أيضاً أمر غيبي لن يفهم الآن ،
ولكن سوف يتضح في ميقاته وزمانه ، ولكن علينا أن نؤمن
إذا كان لنا قلب وإحساس وفطرة وروح تذكر ما كان لها
في عالم الملكوت .

[والحقيقة أن الإيمان بالجن والملائكة قلباً ، هو دليل كاشف على نوع من التذكر الـ امض لعالم القدس والملكوت ، وأنه إيمان دال على شيء وليس مجرد تسليم خاو . ثم يروى لنا الله في القرآن أن الإنسان لا يُترك لقرين الشر من الجن ، وإنما له قرين آخر من الملائكة يلازمه ويلهمه بالخير ، ويظهر هذا القرين الملائكى ليشهد يوم القيامة ويخبر عن صاحبه :

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ۖ

* * *

فليتدبر القارئ سياق الآية التي استشهد بها الدكتور المفسر ، للقرين الملائكى :

«لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بُعِيدٍ ۖ

هل فى هذا السياق ، شهادة من قرين ملائكى لصاحبه
الذى لازمه وألهمه الخير ؟

* * *

ويتابع الدكتور اجتهاده فى تأويل الغيب : [ثم هناك
ملائكة للعرش « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ »
[كيف تحمل ثمانية من الملائكة عرش الله ؟ أم هى
ثمانية صفوف كل صف فيه ما لا نهاية من الملائكة ؟ أم هى
ثمانية قوانين فيزيقية وميتافيزيقية ؟ ثم ما هو العرش ؟ أم هو
روز ؟ وما هو الكرسي ؟ إنه يوصف فى آية الكرسي بأنه
وسع السماوات والأرض . فما بال العرش بأسره ؟ وكيف تحمله
مخلوقات ؟ أم هى مخلوقات غير ما نعرف على الإطلاق ولعلها
قوى كهرومغناطيسية هائلة ؟ ألا تمسك قوانين الجاذبية بالشمس
والنجوم فى فضاء الكون ؟] ص ١٢٨ .

على أن الدكتور ما لبث أن كشف له الحجاب
عن ذلك الغيب كله ، فنشر فى فتاويه بالجملة ردًا على بريد
القراء ، أن العرش الإلهى هو قلب المؤمن ، وأن الكرسي هو
العقل ، أما اللوح المحفوظ فهو جسد الإنسان يكتب فيه
الله أو ملائكته أقدارنا على الجينات الوراثية !
ويقدم معه تأويلاً لقوله تعالى :

«يَمْنَحُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» :
 [وهو كلام محير يفهم من ظاهره أن الله مثلنا يكتب ويشطب
 ويراجع النفس . . وهو غير صحيح ، والتفسير الأصح أن
 الآية دلالة على سعة المغفرة والرحمة بدرجة تصل إلى اللامعقول
 إلى محو القدر المقدور] ص ١٣٧ .

* * *

ونفهم من قوله في إعجاز القرآن :

[وهو معجزة لأنه يخبرك عن ماض لم يؤرخ ، ويتنبأ
 بمستقبل لم يأت ولم تقم عليه الشواهد ، ويدلك على علوم لم
 تعلم بعد ، وعن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة
 من المخصوصين من أهل التصوف] ص ٢٠٦ .

نفهم منها أن الدكتور عدل عما قرره من استئثار الله تعالى
 بعلم الغيب فلا مجال للاجتهاد فيه . ولعله كذلك وضع نفسه مع
 هذه القلة من الصفوة التي كشف لها ما كشف من غيب مطلسم
 محجب ، إذ يقول في الرد على تأويلات صاحب البهائية :

[وإذا كانت حجته في هذه المزاعم هي أنه لم ير الملائكة
 ولا الجن ولا الشياطين ، فلماذا يلزم بها البشرية ، وفي هذه
 البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب شهوداً ؟
 هل الأعمى هو الذى يلزم المبصر ؟ أم أن حجة المبصر الواحد

تقوم فتلزم ملايين العميان الذين لا يرون الشمس إذا رآها مبصر واحد؟

[إنها اختلاقات النبي الذي أراد أن يدخل متتدى الأنبياء بلا مؤهلات ، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يمتحن فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يطالبه أحد بأوراق اعتماده في السفارة الإلهية التي ادعاها] ص ١٢٢ .

* * *

ولا أسأله هنا :

هل تكون رؤية الجن والملائكة والشياطين وعلم الغيب ، أوراق اعتماد في السفارة الإلهية ، لمن رآها من هذه البشرية شهوداً؟

بل أطيل التأمل في قوله ، تأويلا لآيات النجم :

« إِنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ يُوْحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » والتكوير « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ » :

[وحينما يصف الله أحد مخلوقاته بأنه شديد القوى وبأنه ذو القوة والمكانة ، فلا بد أنه هائل عظيم في قوته وفي إمكانياته .

[ونفهم من القرآن أن جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض

في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أى نبي في أى عصر وبأية لغة [؟ ! ص ١٣٠ .

ثم لا أملك إلا أن أتلو الآية المحكمة :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا »
وأستغفر الله لى وله . . .

* * *

وماذا عن غيب الآخرة ؟

الساعة التى استأثر الله بعلمها وقال لرسوله المصطفى :
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا *
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا * كَانَهُمْ
يَوْمَ بَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » النازعات : ٤٢-٤٦
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةً ، يَسْأَلُونَكَ كَانَتْكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .
الأعراف : ١٨٧

« يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً » . الأحزاب : ٦٣

هذه الساعة التي لا يعلمها إلا الله ، والتي أكد القرآن أنها تأتي بغتة ، أدخلها المفسر العصري في مجال اجتهاده ، فجاءنا من غيب أنبأها ، بفصل كامل من كتابه .

وعلى عادته يبدأ بتقرير الأصل فيقول : [الساعة ذروة الغيب ، وعلمها محجوب عن الكل . اختص الله به نفسه دون العالمين] .

ثم لا يلبث أن يمضي على غلوائه ، فيضع رؤيا يوحنا اللاهوتي أمامه ، ثم يتجاوز أقصى المدى في الاجتهاد ، فيحدد موعداً محتملاً لقيام الساعة ، بيننا وبينه ثلاثون عاماً !

قال : [ثم تأتي العلامة الأخيرة وهي يأجوج ومأجوج . وهي قصة غامضة كلها رموز .

[البعض (؟) يقول إن يأجوج ومأجوج هم نسل يافث ابن نوح ، وإنهم هم الجنس الأصفر ، الصين وما في دربها ، عاشوا في آجال وأحقاب من الجهالة ، والشعوب المتقدمة من حولهم تبنى أسواراً من العلم والتصنيع .

[وذو القرنين وصهر الحديد والنحاس ، كلها رموز للعلم والصناعة التي كانت دائماً تحجزهم وراء حاجز الجهل

والتخلف وتقيم حولهم سدًا . حتى إذا جاء اليوم الموعود ونفضوا
عن أنفسهم هذا التخلف وأخلوا بأسباب الصناعة وصنعوا
الحديد والصلب والقنبلة الهيدروجينية وتكاثروا إلى آلاف الملايين
وهدموا السد (ولم يكن ذلك السد إلا رمز الجهل الذى يعزلم
عن العالم) ساحوا فى الأرض ونزلوا من كل حذب ينسلون
وكانت الحرب التى تضع ختام الحياة [ص ١٤٤ .

[ومع هذا ، فإننا لو فتحنا الإصحاح العشرين من
سفر الرؤيا وقرأنا ما يقوله يوحنا اللاهوتى عن يأجوج ومأجوج ؛
فإننا نراه يقول نفس المعانى ويشير نفس الإشارات : « متى
تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم
الذين فى أربع زوايا الأرض . . . يأجوج ومأجوج ليجمعهم
للحرب وعددهم مثل رمل البحر »]

هنا ينتبه الدكتور إلى أن « الألف سنة » — وأقرب احتمال
عنده أنه بعد ميلاد المسيح عليه السلام — قد مضى منذ
تسعمائة سنة وسبعين ، فلا يجد مانعاً من الاجتهاد فى تأويله :
[ما هذه الأمة التى عددها كرمل البحر ، والتى سوف
تحتشد لتحارب العالم عندما تم السنة الألف ؟ ولعله يقصد
الألف الثانية ميلادية ، وبقى عليها الآن أقل من ثلاثين سنة .
[هى أمور تثير الخيال ، وهى نبوءات تتداعى الواحدة
لتؤيد الأخرى ، ولا نملك إلا الصمت ، فمثل هذه التأويلات

لا يحق لنا أن نؤولها والوحي يقول لنا عن القرآن : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

مرة أخرى يخونه سياق الآية ، في المتشابه من آيات القرآن ، لا في القرآن كله .

ومرة أخرى يردد القاعدة الأصولية في حظر الخوض في الغيبيات ، ومنع الاجتهاد في تأويلها .

بعد كل ما أوغل فيه من تأويل لغيب الساعة ، ورؤية الجن والشياطين والملائكة شهوداً .

ثم يستطرد فيضيف علامة لقيام الساعة ، بعد الأخيرة التي حددها بياجوج ومأجوج — فينقل إلينا من سفر الرؤيا تفسيراً لآيات الانفطار والتكوير ، صورة مشابهة للقيامة ،

في رؤيا يوحنا اللاهوتي — ص ١٤٧

وكانت نهاية المطاف عنده ، فيما كشف له من غيب الآخرة :

[حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس للنفس .
تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا!...]

[ولكن هذه المعاني تضع في النظرة المتعجلة والقراءة السطحية والوقوف عند الحروف ، وعند جلجلة الألفاظ !

[أكاد أجزم بأن ألفاظ القرآن بما فيها من جلجلة وصلصلة

حينما تصف الحليم إنما هي نذير حقيقى بعذاب نعذبه لأنفسنا
بأنفسنا عدلاً وصدقاً على رتبة استحقها كل منا بعمله . وأكاد
أضع يدي على الحقيقة لأريب فيها [ص ٨٤ .

* * *

هكذا كاد يضع يده على الحقيقة فى غيب الآخرة .
وذلك غير مستبعد ممن يرشدك إلى الوسيلة التى تكشف
لك ما كشف له من علم الغيب ، فيقول :

[ووعده الإنجيل : « اطلبوا تجدوا . دقوا على الباب يفتح لكم »
على أن يكون دق الباب بجماع القلب والهمة وانقطاع البال
وخلوص النية . وليس مجرد شقشة لسان بدعاء تقليدى .
وحينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبائه وأوليائه
فيفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً ،
وتسمع ما لا أذن سمعت] ص ١١٩ .

* * *

(٢)

حرية الإنسان

وأدع الغيبيات ، من قصة الخلق ، ومن الجن والملائكة ،
وعلم الساعة والآخرة ، لأتابع المقارنة الموضوعية بين دراستي
القرآنية والتأويل العصري ، فأشير بوجه خاص إلى مباحث حرية
الإنسان ، التي هي قضية الإنسان الكبرى في هذا العصر
وكل عصر .

* * *

والمبحث الأول من مباحث هذه القضية في كتابي ، خاص
بالحرية والرق ، وخلاصة ما هدى استقراء كل آيات القرآن
فيه ، هو : « أن كتاب الإسلام لم يكتف في مواجهة
مأساة الرق بتقرير المساواة بين الناس جميعاً وتحريم العبودية لغير
الله وحده ، وهذا هو جوهر الدين كله .

ولنأخذ ، من ناحية ، إلى إغلاق المنفذ الجديد للاسترقاق ،
وإلى تصفية الرق القائم عصر المبعث من ناحية أخرى :
« فأما إغلاقه المنفذ للرق ، فالمعروف أن أسرى الحرب
والقتال كانوا المورد الأول للرق . وتشهد آية محمد :

”فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى
إِذَا أَنتَحْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى
تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا“

تشهد أن كتاب الإسلام لا يجوز استرقاق أسرى الحرب ،
ولأنما يختار المسلمون المنتصرين بين أمرين لا ثالث لهما :
المن على الأسرى بإطلاقهم ، أو قبول الفدية فيهم . وإذا لم
يقل الثالثة : وإما أسراً واسترقاقاً ، فقد سد المنفذ الأكبر
للرق وأعنى الإنسانية من مورد له جديد متصل .

« وفي تصفية الرق القائم ، بدأ القرآن في العهد المبكر
المبكر فحضر الإنسان على اقتحام العقبة لتحقيق وجوده الإنساني
الحر ، وبين تعالى سبيل اقتحامها ، فكان ”فَكَ رَقَبَةً“ أول
ما بدأ به ، دون تقييد هذا الفك بكفارة من ذنب :

” فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكٌ
رَقَبَةً “

« ثم في العهد المدني الذي اتجهت فيه عناية القرآن إلى
التشريع ، أخذ وضع الرق من هذه العناية ما يؤكد حرص
الإسلام على تصفية الرق القائم . وقد بدأ العهد المدني بسورة
البقرة وفيها « آية البئر » :

”لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَفِي الرِّقَابِ“ . (التوبة : ٦٠) .
ثم حدد القرآن مصارف الصدقات ، وهي من أكبر مصادر
لإيراد بيت المال ، فجعلها ثمانية من بينها تحرير الرقاب .
وفرض الإسلام على المؤمن تحرير رقبة ، كفارة لعدد من
الذنوب منصوص عليها في القرآن :

الحلف في الأيمان : المائة ، ٨٩

القتل الخطأ : النساء ، ٩٢

الظهار : المجادلة ، ٣

كما شرع المكاتبه منفذاً آخر لتصفية الرق (النور ٣٣)
وإذا كان الاسترقاق قد بقي في المجتمع الإسلامي على
عهد الرسول والصحابة ، فلست أشك بما أعي من سيرة
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين ، أن الرق كان
في طريقه إلى التصفية لولا ما طرأ على الأمة الإسلامية ابتداء
من العصر الأموي من ظروف وأوضاع ضيقت على الإنسانية

ما أتاحه لها كتاب الإسلام لتخليصها من محنة الرق .
(مقال في الإنسان ، ٦٧ : ٧٣)

* * *

المبحث كله جملة وتفصيلاً منقول إلى التفسير العصري ،
وإن عدل به عن موضعه من قضية الحرية إلى فصل
(لا كهنوت) !

وقد حاول أن يستغنى — فيما نقل من كتابي — عن
بعض ألفاظ ، وأن يعيد صياغة بعض الحمل بأسلوبه العصري ،
فخانه الالتفات إلى دلالة السياق وأفسد المعنى . كمثل قوله :
[والحل الأمثل هو الذي نزلت به الآيات بالألا يكون
هناك مزيد من الاسترقاق . وكان مصدر الرقيق هم أسرى
الحروب وكانت وصية (؟) القرآن تسريح الأسرى أو طلب
الفدية فيهم : « فَلِمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ » بلا استرقاق .
[أما الموجود من الأرقاء فيتم تصفيتهم بالتدريج إذ جعل
القرآن فك الرقة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها (؟) وجعلها
وسيلة تطهير نفس واقتحام لها « فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » .
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ »

[بهذا أغلق الباب أمام مصدر الرق ، وعمل على تصفية
الموجود منه . وإذا كان ما حدث في الدولة الأموية هو

العكس فليس الذنب ذنب القرآن ، وإنما ذنب النظام الذي تفسخ ، وقصور الخلفاء التي تحولت إلى مسارح للمتعة الحسية على الطريقة الفارسية] - ص ١٧٥ .

وأترك للقراء أن يردوا هذا الكلام إلى مصدره . وألفهم إلى مواضع التعثر فيما حذف أو غير :

جعل تشريع المنّ والفداء وصية ، وهو في الآية أمر

صريح !

وذكر فك « الرقة » معرفة بأل ، وليس في القرآن كله إلا « رقة » ، والتنكير فيها يفيد العموم .

وتورط فأفتى بأن [القرآن جعل فك الرقة كفارة للذنوب صغيرها وكبيرها] هكذا على الإطلاق ، وذلك ما لم يقله القرآن ، ولا قال به أى مسلم يعلم أن الكبائر لا يكفر عنها فك رقة . والذي في كتابي : « كفارة لعدد من الذنوب منصوص عليها في كتاب الإسلام » .

ونقل الفقرة الأخيرة من المبحث ، فاستغنى عن الإشارة فيها إلى عهد المصطفى وخلفائه الراشدين ، ولاغنى عنها . وتوسع في إشارتي إلى العصر الأموي ، فذكر [قصور الخلفاء الأمويين التي تحولت إلى مسارح للمتعة الحسية على الطريقة الفارسية] والذي يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الإسلام ، أن قصور الأمويين كانت في شغل شاغل بفتوح إفريقية

وغزو الروم ، وبالقتال في جبهات : الشيعة والزبيرية والخواارج ،
 وأن غزو المدينة الفارسية لم يبدأ إلا مع الدولة العباسية التي قامت
 بسيفو الخراسانيين فمكنت لهم من مراكز السلطة فيها
 والنفوذ ، وفتحت الأبواب لغزو المدينة الفارسية الذي ظل
 الأمويون يصدونه تعصباً للعربية ، فكان اضطهادهم للموالى ،
 من الفرس بخاصة ، من أقوى الأسباب التي قضت على الدولة
 الأموية .

* * *

وفي حرية العقيدة

قدمت الاستقراء الكامل لما في القرآن من آيات تحظر
 الإكراه في الدين وتقصّر مهمة الرسول على البلاغ ثم نظرت
 في موقف الإسلام من الأديان السماوية قبله « فتراه لا يكتفي
 بالاعتراف لمعتقداتها بحرية التدين ، بل يلزم المسلمين كذلك أن
 يقرؤا بنبوة كل الرسل ، ديناً وعقيدة ، لا مجرد التسامح أو
 المسالمة ، كما يلزمهم أن يؤمنوا بأن الإسلام مصدق لما بين يديه
 من رسالات الله .

« ومع اعتراف الإسلام بتلك الأديان المتعددة التي سبقته ،
 وتقريره أنه مصدق لها ، وتأكيده لمبدأ حرية التدين . .

« مع هذا كله فإنه في رياضته للبشرية على تحقيق وجودها

الأسمى ، استشرف بها إلى غاية تبدو بعيدة ، وأفسح لها مجال الطموح إلى ما وراء هذا الأمل القريب في احترام حرية التدين :

« تلك الغاية البعيدة التي رنا كتاب الإسلام إليها ، هي الوحدة الجامعة تلتقي فيها الإنسانية المتدنية على الإيمان بالله ، لاتفرق بين أحد من رسله .

ذلك حين قرر وحدة الأديان بوحدة مصدرها وغايتها ، فالذي تلقاه خاتم الرسل هو في جوهره ما تلقاه الرسل من قبله .

” مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ”

فصلت : ٤٣

” وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ” .

المنكوت : ٤٦

ثم يبين منهاج الدعوة إلى هذه الوحدة الجامعة في مثل آية آل عمران :

” قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ”

« ومن تحرير الإسلام ، ختام الأديان ، لعقيدة الإنسان لإبطاله سلطة الكهنوتية التي تسلطت على العقيدة الدينية بالقهر والتحكم ، بما أخذت من صفة الوساطة بين العبد المتدين وخالقه ، وما انتحلت من سلطة إلهية تمنح بها صكوك الغفران ، أو تصدر قرار التكفير والحرام . وذلك ما أبطله الإسلام فلم يأذن لأحد أن يتوسط بين العبد وخالقه :

” وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ” .
البقرة : ١٨٦

« كما ليس لأحد أن يوزع بطاقات دخول إلى الجنة أو النار ، أو يحدد لمخلوق مثله مكانه هناك . فهو سبحانه الذي يدرى أين يضع رحمته ، والرسول المصطفى لم يكن له شيء من هذه الحقوق الإلهية التي يتحلها فينا ناس تسلطوا على خلق الله بكهنوتية أبطلها الإسلام :

” إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُتَّحِدِينَ . القلم : ٧ ، والنحل : ١٢٥ .

« ولعل عداء بعض المذاهب المحدثه للأديان ، إنما نشأ أصلاً بسبب ما انتحله رجال الدين فيهم من سيطرة كهنوتية سوّغت باسم الدين البغى والاستغلال وهادنت الرجعية والفساد والطغيان واستنزفت أموال المتدينين الكادحين ، ثمناً للمغفرة أو فدية من غضب الله .

« ومن عجب أن حركة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوتر تأثرت بمبادئ الإسلام في إبطال سلطة الكهنوتية وتحريم صكوك الغفران ، ثم يكون بيننا من يمارس هذا الحق المزعوم في أمة الإسلام ، فيستحل ما لم يعطه الله أحداً من رسله :

” أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ “ . المائدة : ٤٠ .

” إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ “ . النساء : ٤٨ .

” قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ “ . الزمر : ٥٣ .

« فَأَنَّى لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّحِلَ فِينَا هَذَا الْحَقُّ ، وَكِتَابُ الْإِسْلَامِ
 قَدْ رَفَعَ عَنِ الْإِنْسَانِ إِصْرَ تِلْكَ الْكَهَنَوِيَّةِ ، تَقْرِيراً لِحُرِّيَةِ عَقِيدَتِهِ
 وَضَمِيرِهِ وَعَقْلِهِ : وَمِمَّا تَلَقَّى الْمُصْطَفَى مِنْ كَلِمَاتِ رَبِّهِ :

”قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ“ .

”وَكُونُوا شَاءَ اللَّهِ مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ

حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ“ .

”فَإِنْ أَغْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ“ .

”فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُحْسِنٍ“ .

« وَكِتَابُ الْإِسْلَامِ يَعْضِي فِي رَفْضِ الْكَهَنَوِيَّةِ ، إِلَى الْمَدَى
 الَّذِي لَا يَغْنَى فِيهِ اسْتِغْفَارُ الرَّسُولِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ قَوْمِهِ :

”اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ“ التوبة : ٨٠ .

وَحَقُّ الشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ مَعْلُوقٌ بِإِذْنِهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ ،

بِضَرْيَخِ الْآيَاتِ الْحَكَمَاتِ :

فَإِذَا لَمْ يَأْذَنْ سَبْحَانَهُ ، فَهِيَاتِ لِأَحَدٍ مِنْ شَفِيعٍ ، وَهِيَاتِ

أن تجدى شفاعة من دونه
 فأين الإنسانية اليوم من حرية العقيدة التي أقرها القرآن
 وفرضها منذ أربعة عشر قرناً ؟

« ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(مقال في الإنسان ٧٥ : ٨٨)

من أسف أن عطاء هذه الدراسة المنهجية ، قد تبدد
 في التأويل العصري ، فجاء شطرها الخاص بموقف الإسلام
 من الأديان قبله ، في فصل (رب واحد ودين واحد)
 وجاء الشطر الخاص بإبطال الإسلام للكهنوتية ، مادة
 فصل (لا كهنوت) .

وهما في الدراسة متلازمان متكاملان ، يتم بهما معاً فهم
 (حرية العقيدة) .

فضلاً عما لحق بها من بتر النصوص وبعثرة الشواهد ،
 وما أضاف إليها التأويل العصري من فتاوى شرعية ، في مثل
 حد السرقة ، وتعدد الزوجات ، وغض البصر ، وتكفير
 الكبائر بفك رقبة !

أما مبحث : حرية الإرادة ،

فيشق على أقسى المشقة ، أن ألمح أي وجه للمقارنة بين
 دراستي المنهجية لأعقد المشكلات التي واجهت مفكري

الإسلام ، وبين ما يلقانا في (مخير أو مسير) بالتأويل العصري .
 من اضطراب التناول وخفة الأسلوب وطيش الأحكام .
 وما ظنك بمن يتصدى لعقدة العقد في الفكر الإنساني ،
 بمثل قواه : [ولأن القرآن كتاب دين وليس كتاب فلسفة ، فإنه
 يكتفى بالومض والرمز والإشارة واللمحة ... فهي تلمح ولا تصرح
 حتى لا تلقى الناس في بلبلة .

[ولهذا السبب — لعدم القهر والجبر — أخفى الله نفسه في
 الإنجيل وأخفى نفسه في القرآن ، لأنه لم يرد أن يلجمنا بالتجلى
 القاطع الفاصل فيقهرنا على الإيمان قسراً .

وضمن آياته البراهين ، ولكنه لم يجعلها أبداً (١) براهين
 ملازمة تأخذ بالخناق وتقهر العقل] .
 يفتح الله

لا وجه لمقارنة مثل هذا الكلام ، بعبء دراسة
 استوعبت أقوال الفرق الإسلامية في مشكلة الجبر والاختيار ،
 وعرضها على القرآن في استقراء كامل لآيات الإرادة فيه ، هدى
 إلى الفرق الجوهرى بين مفهوم إرادتنا الكسبية الحرة ، ومفهوم
 الإرادة الإلهية التي هي حكم نافذ وقضاء مبرم ، يحكم علينا بما
 أردنا لأنفسنا ، تقريراً حاسماً للتبعة وتأكيداً لحرية إرادتنا
 والزاماً عادلاً بمسئوليتها ، وترسيخاً لثبات السنن الإلهية التي
 لاتعقل إرادته تعالى بنقضها !

(مقال في الإنسان ٩٩ : ١١٧)

(٣)

الوجود . . . والعدم

يبدأ هذا المبحث فى دراستى بمدخل من نضال الإنسانية القديم لمقاومة فكرة العدم .

« وجاء عصر الأديان المعروفة لنا والبشرية تجاهد لاستنقاذ إرادة الحياة من دمار التسليم بالعدم ، فبشرتها الأديان بحياة أخرى بعد الموت ، يربهن مصير الإنسان فيها بما قدمت يداها فى الحياة الدنيا » .

والبشرى مصحوبة بنذير ، صك سمع عبّاد الدنيا من عهد ما بعد الطوفان (المؤمنون ٣٣ : ٣٧) .

« ومضت الحياة لاتتوقف ، واستراح الإنسان المتدين إلى رفض فكرة العدم التى تجعل وجوده فى الدنيا عبثاً عقيماً ، كما تجعل رحلته الدنيوية وتكاليفها عبثاً باهظاً لا يُحتمل » .

« وفى كتاب الإسلام ، نستطيع أن نلتمس الكلمة الأخيرة للدين ، فى مصير هذا الإنسان الذى خاض معركته الطويلة المضنية من أجل الحياة ، وأعياء مع ذلك أن يتحدّى قانون الموت القاهر النافذ ، يسرى على أفضل الرسل وأنهى العباقرة وأنبغ الأطباء وأشجع الأبطال . وأعنى الجبابرة ، كما يسرى

على أضال حشرة هينة هائمة في الكون الواسع العريض ؛
 « والإقناع بحياة أخرى بعد الموت أمر بالغ الصعوبة ، إذ
 يشق على الإنسان أن يتصور رجعة الحياة بعد أن نفى الأجسام
 والذين سبقونا إلى المقابر ، لم يعد منهم عائد يحدثنا عما هناك .
 والعلم عاجز حتى اليوم عن اقتحام تلك المنطقة الغيبية المجهولة
 خارج نطاق تناوله . وكل ما يرجف به المرجفون من قول
 بالعدم المطلق بعد الموت ، لا يعدوا أن يكون في حساب العلم نفسه
 رجماً بالظن .

” وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا
 يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
 يَظُنُّونَ “ .
 الحاشية : ٤٢

« وإذا كانت الأديان تكل المؤمنين إلى إيمانه بما جاءت
 به الرسل من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، فإن كتاب
 الإسلام الذي ختمت به الرسالات الدينية إيداناً بأن البشرية
 بلغت رشدتها ، يقدر حاجة الإنسان إلى برهان يقنعه
 بالحياة الأخرى . ويتوقع جدله في هذه المسألة الغيبة
 * وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا *

(مقال في الإنسان ١٢١ : ١٢٤)

من هذا المدخل ، كان منطلقى إلى :

جدل في البعث :

استقرأت فيه ما تلا علينا القرآن مما أثير من جدل حول البعث : « ثم لم يدع شبهات الذين أنكروه تمر ، مكتفياً بأن يكفل الإنسان إلى إيمانه ، بل حرص على أن يرد تلك الشبهات بالمنطق الذي تطمئن إليه الإنسانية دون أن تحتاج فيه إلى أكثر مما تهيأ لها من إلهام الفطرة وهدى البصيرة ووسائل التأمل والنظر كيلا يكون الاطمئنان وقفاً على زمان بعينه أو مرتبطاً بظروف وأحوال خاصة لا تحتاج لكل إنسان .

« وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام ، ما نراه في الواقع لمشهود من حياة الأرض بعد موتها ، وما نبصره بأعيننا من خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي ، توطئة للإقناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العادى فضلاً عن أن تكون من المستحيل العقلى :

”وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ“

فصلت : ٣٩

”يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ“

الروم : ١٩

وليس هذا فحسب ما يقدمه الدين في كتاب الإسلام ليطمئن قلب الإنسان إلى إمكان البعث ، بل إنه يضع كذلك أمام بصره وبصيرته ، وحسه ووجدانه ، آية القدرة الإلهية المعجزة خلق الإنسان أول مرة ، فلن يعيها أن تعيده مرة أخرى ، وذلك أهون .

« وتوشك الآيات القرآنية في خلق الإنسان ، أن تكون في الغالب الأعم موجهة ، لا إلى علوم البيولوجيا ، بل إلى الاستدلال بهذه النشأة الأولى على إمكان النشأة الأخرى .

ومن هذه الآيات ما يأتي في سياق الرد على الكافرين في هزئهم بنذير الآخرة :

” بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَيْنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * “ .

” أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ “
ق : ٢ - ١٥

” وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ “ .

” وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ “ .

”وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا
جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا
يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا : قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ “ .

الإسراء : ٤٩

» ومنها ما يأتي دفعاً لحيرة الإنسان فيما يشغله من أمر تلك
الحياة الآخرة التي أكدتها الأديان ، وما يجهد من التفكير
في تصور إمكان تحقيقها :

”وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا *
أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا “ .

مريم : ٦٦

”أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى
قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ “ .

”أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى *
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ
عَلَى أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَى “

القيامة

”فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ *
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ“
الطارق

”أَو لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ
يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ“
يسن : ٧٧

« بهذا المنطق ، يقدم البيان القرآني إلى الإنسان ، الآيات
الشاهدة على أن الذي خلقه أول مرة ، قادر على أن يعيد خلقه
مرة أخرى . فإذا شق على الإنسان أن يتصور حياة بعد
موت ، فليتأمل في الكون حوله ، ير شواهد من الواقع الحسي ،
في الأرض تحيا بعد موت ، وفي الكائنات الحية تخرج مما يبدو
لنا هامداً ميتاً .

« لكن هذه الآيات إذا أقنعت الإنسانية المتدينة التي تؤمن
بخالقها فقد بقي هناك مجال لما يثير الملحدين من جدل في أن الله
هو الذي خلق الإنسان أول مرة ؛ ولا يسكت القرآن عن
هذا ، بل يقدم برهانه الذي يجلو الريبة ويفهم المنكر .

والسؤال الذى عرضه كتاب الإسلام بصيغة التحدى لكل منكر أو مرتاب هو :

” أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ ”

الطور : ٣٥

ثم نزلت آية الحج المدنية ، فضربت للناس المثل الصادع ، وسأقت البرهان المفحم :

” يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ”

« ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم القرآن هذا المثل ، أربعة عشر قرناً ، ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق ما ارتاد ، وتابع فضاله الباهر العجيب فى كشف ألغاز الوجود وأسرار الكون ، وغزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر ^(١) .

وما يزال المثل القرآنى يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقريه العلماء . وما يزال على الذين غرهم الغرور بما حققه إنسان

(١) هذه الدراسة القرآنية ، نشرت أول عام ١٩٦٩ ، قبل هبوط

« أبولو » على سطح القمر .

العصر الحديث من منجزات العلم، أن ينسخوا ذلك المثل بأن يجتمعوا فيخلقوا ذباباً ، أو يستنقذوا شيئاً سَكَبَتْهُمْ إِيَّاهُ هذه الحشرة الضئيلة التي تقتلها ذرة من هواء مشبع بمبيد للحشرات ، وتستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته ، بلمسة هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت .

(مقال في الإنسان ١٢٥ : ١٣١)

هذا العرض في سياقه المنهجي الذي يطمئن به مكانه في قضية البعث من مبحث الوجود والعدم ، تناثر مشتتاً مهلهلاً في فصلين من التأويل العصري : (البعث ، وإعجاز القرآن) مع بهرجة من كلمات عصرية خلافة ، وحشو من بدع التأويلات المقحمة على القرآن وعلى العلم معاً !

فلأقف عند الفقرة الأخيرة التي نقلتها هنا من كتابي ، لأعرض عليها ما يقابلها من التأويل العصري :

[فإذا لحا القرآن إلى الجدل فهو يجادل في بساطة و يقيم الحجة في إحكام . يقول عن الكافر الذي لا يصدق أنه يبعث . « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

«أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» .

[وليبرهن على وجود الخالق لا يلجأ إلى صفحات من الحذلقة الفلسفية ، وإنما هو مجرد سؤال يوقع به الكفار في إشكال : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ » ؟ فإذا أراد أن يفهم ويلجم ألتي بمثل آخر .

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » .

[وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا (! ؟) فمن يستطيع أن يخلق ذبابة على هوائها وتفاهتها . وإذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنها لو سلبتك ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الحماثر الهاضمة . فما أضعف الطالب والمطلوب .

ما أضعف عبقرى الكيمياء وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة من النشا . بهذه البساطة المعجزة المألوفة ، يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان [ص ٢٠١ .

وهنا أيضاً خانه الحرص فيما حاول أن يغير من عبارتي . فتورط في عثرات من التدليس :

نقل هذا الكلام من مكانه في (جدل في البعث) من مبحث الوجود والعدم ، إلى فصل . . . (إعجاز القرآن ١) وجعل آية يس : « وَخَسِرَ بَلَسْنَا مَسْئَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ » قولاً عن الكافر ، والآية في سياق الحديث عن الإنسان بعامة .

واستبدل بعبارتي في المثل القرآني « ما يزال بعد أربعة عشر قرناً منذ ضرب للناس ، يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء » عبارته : [وهو مثل ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطور العلم والتكنولوجيا] .

ولا أعلم أن العلم والتكنولوجيا ، تطورا منذ ألف عام ، أى في القرن التاسع الميلادي ، من صميم العصور الوسطى ! وما قلته في منطق البيان القرآني لدفع الشك في البعث ؛ « يشبه النظر الحرو والبصيرة المميزة والتأمل الواعي ، دون أن يحتاج فيه الإنسان إلى ظروف خاصة أو وسيلة خارجية إن أتاحت

لعدد من الناس في بيئة معينة أو عصر خاص؛ فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية « أعاد صياغته وأضاف إليه ما لم أقله من صفة الإلغاز : [بهذه البساطة المعجزة المألوفة يتعرض القرآن لأعقد القضايا فيوصلها لأبسط الأذهان] .

وجاز عنده أن توصف البساطة بالإلغاز ، وأن يكون الإلغاز سبيل توصيل أعقد القضايا إلى أبسط الأذهان !

* * *

وعلىَّ أن أكتفي الآن بما قدمت من مقابلة كاشفة لعترات التدليس بجهالة ، وأخطاء النقل الغافل عن المغزى والسياق .

فلأختم هذا العرض بنكتة لطيفة :

في دراساتي القرآنية ، يبهرنى البيان المعجز وتأسرنى ضوابط المنهج ، فقلما أتعلق بإيراد شعر .

غير أن « مرثية أبي العلاء » الدالية ، خطرت على بالي وأنا أدرس قضية الإنسان فبحثت بأبيات منها في مبحث (العَوَرَض والجوهر) من مقال في الإنسان ، على ندرة ما أفعل .

ولم أعجب حين جاءت الأبيات نفسها في التفسير العصري الذي لا مجال فيه لشعر ، منقولة إلى أول فصل (لا إله إلا الله) !

مع تعثر في نقلها أخلَّ بنسقتها الشعرى ، ومع خطأ نحوى أفسد المعنى !

اللهم فاشهد !

« أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا » صدق الله العظيم
(سورة النساء)

أخذ بعض الناس بكلمات خلافة من التأويل العصري
ترضى وجدانهم الدينى . ويسأل سائلون منهم : ماذا علينا
لوقبلنا منها ما يرضى عقيدتنا ، وتجاوزنا عما يخالطه من بدع
التأويل ومدسوس الإسرائيليات ؟

* * *

من واجبي أن أستخلص لم مما قدمت من شرح للقضية ،
بعض ما أقدر حاجتهم إليه ، ليتدبروا ما يقدم إليهم باسم القرآن ،
ومنطق العلم ، وروح العصر .

ليس لى أن أجادل فيما جاء فى التفسير العصري ، من
[أن النبى الأسمى لم يكن يعرف لاهو ولاقومه ولاعصره ، معنى
كلمة بيولوجيا وچيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم أجنة وتشريح
وأثروبولوجيا] ص ٤٨ .

ولا أخوض كذلك ، فيما غاب عن عصر المبعث ومدرسة
النبوة ، من 'محدث التأويل لما جاء فى [ذلك القرآن المذهل الذى
أتى به رجل أسمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، بدوى راعى غنم فى
بيئة بدوية ، من أجلاف البدو فى صحراء جرداء منقطعة الصلة
بالحضارة والعلوم] ص ٢١٤ .

بل ما ينبغي لى أن أجحد حق الدكتور المفسر
فى هذا التأويل العصري لآيات كشفت له من قصة الخلق
عما لم تكشف للنبى الأسمى وعصره ، فى بيئة بدوية لاعلم لها

بالبيولوجيا والأميبا والرخويات والقشريات التي تطور فيها آدم الثاني بعد طرده من الملكوت مجرد جرثومة في الطين، احتاجت إلى آلاف الملايين من السنين ، لينتصب فيها هذا الآدم الثاني على قدميه ، فتبدأ حياتنا الثانية بعد تلك الأولى التي كانت لنا في الملكوت قبل النزول في الأرحام !

كما لا ينبغي لي أن أجادل في أن النبي الأمي ، لم يبين لأمته من آية يس « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » ما في تأويلها العصري من إشارة إلى جيولوجيا القمر الذي هبطت عليه أبولو ، وأن يربط — عليه الصلاة والسلام — بين « سبع سموات » وبين ما في التأويل العصري من كلام عما [كشف العلم من أن الضوء سبعة ألوان هي ألوان الطيف ، وسبع درجات من الأطوال الموجية من الأحمر إلى البنفسجي ... وبالمثل السلم الموسيقي سبع درجات ثم تعود الثامنة فتكون جوباً للأولى وهكذا] ص ٦٣ .

فضلا عن أن يكون النبي الأمي قد فهم أن حملة العرش في اليوم الآخر ، بآية الحاقة ، يمكن أن يكونوا [قوى كهرومغناطيسية] أو أن آية آل عمران : « وَلَهُ أَمْلَأُ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » .

تتعلق بما عرف المفسر العصري من [قوانين : الضغط الأزموزي ،

والتوتر السطحي . وتماسك العمود المائي ، والتوازن الكهربائي
والأيوني في المحاليل ، والتفاضل الكيميائي ، ورفض الفراغ ،
ورد الفعل] .

ذلك كله وأمثاله معه ، بعيد عن النبي وعصره ،
وإنه لبعيد كذلك ، أقصى البعد ، عن تلاميذ المدرسة القرآنية ،
فلنتركه للطبيعيين والرياضيين ليروا ما إذا كان شيء من هذا
مما يصح في علمهم ويجوز عند علماء العصر الحديث !

* * *

لكن ماذا عن أسرار البيان القرآني ؟

أيمكن المصطفى والعرب الفصحاء الأصلاء في عصره .
لم يدركوا منه ما يدركه مفسر عصري ، يستوى عنده الأعشى
والمنصرف ، وبعد من إعجاز القرآن أنه أنث لفظ العنكبوت ،
وأنه ذكر « العير » في قصة يوسف ، بدلاً من « الحمار »
في التوراة ، لأن العير معناها الإبل ؟

هل يكون مثل هذا المفسر العصري ، أن يهتدى إلى
ما غاب عن النبي القرشي والعرب الفصحاء ، من لغة كتاب
عربي مبين ، وأسرار بيانه ، وإن الطفل البدوي من عصر
المبعث ، ليدرك أن العرب أنثوا العنكبوت من قديم وثنياتهم
الجاهلية ، وأن العير في أصل استعمالها لقافلة الحمير ، والعير
الحمار الوحشي ؟

الذى لانجادل فيه ، هو أن المصطفى والعرب فى عصره ، لم يفهموا من البيان القرآنى ما جاء فى التأويل العصرى عن : الموسيقى الباطنية للقرآن (ص ٩) وذبذبة حروفه ، والسيمفونية السباعية لسورة الفاتحة (ص ٩٣) وفورم المعمار القرآنى (ص ١٦) ولم يتصوروا أن المثل القرآنى للحياة الدنيا : [نذير بأن كل هذا العالم ديكور من ورق اللعب ، ومدينة مزيفة مصيرها أن تفك وتعاد إلى علبتها] ص ١٨٦ ولا خطر ببالهم أننا [كلنا مجرد صور تهرق وتختفى على شاشة الوجود كما تتجمع الصور على شاشة التلفزيون ثم تتبدد وتزول عند انقطاع التيار ثم تعود فتتجمع صور أخرى عند وصل الكهرباء] ص ١٨٣ .

ذلك كله ، ومثله معه ، من عصرى الصور والتشبيهات التى لم يعطها البيان القرآنى للنبي وعصره وبيئته .

لكن الذى لا يصح فى العقول ، هو أن يفهم مفسر عصرى ما لم يفهمه النبي القرشى والعرب الفصحاء ، من لغة هذا القرآن وبيانه وأحكامه ، ومن ثم يتصدى للفتيا فى أحكام الشرع ، بغير ما بينه المصطفى وعرفه الصحابة وأئمة الفقه الإسلامى !

كالذى نقلتُ من تفسيره للنعلين بالنفس والجسد ، والقرين الملائكى . ومثل فتاويه فى الحلال والحرام ، يعطل بها حدود الله ، ويلغى قانون السببية ، وهو من السنن الكونية الثابتة !

— ويؤكد القرآن فى عشرات الآيات ، أن الله سبحانه هو

الذى يحاسب عباده « فيغفر ان يشاء ويعذب من يشاء » .
 ويفتى المفسر العصرى فى الحساب والعذاب يوم الآخرة :
 [حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس . تعالى ذو الجلال
 أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا] ص ٨١ .

— ويقول تعالى لبنى آدم ، تحذيراً من فتنة الشيطان :
 « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »
 ويقول المفسر العصرى :

[وفى هذه البشرية من رأى الجن والملائكة والشياطين
 شهوداً] ص ١٢٢ .

— ويقول تعالى لنبيه المصطفى :
 « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم
 ولعلهم يتفكرون »
 « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه
 وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

وفى التأويل العصرى : [أنه — سبحانه — سوف يشرحه
 ويبينه فى مستقبل الأعصر والدهور] ص ٤٩ :

[ثم إن الوحي يلقى عليه فواتح السور ما هو أشبه بالشفرة
 والألغاز مما لم يقل لنا النبي إنه يعلم له تفسيراً وإنما
 هى بعض التحديات التى نحدانا بها القرآن ووعدنا بأن يأتى
 تأويلها فى آخر الأيام] ص ١٩٦ .

— ويقول تعالى :

« كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون »

ويؤكد التأويل العصري ، عشر مرات أن القرآن يتحدث بالشفرة والرمز ، والألغاز المطلسة (ص ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٨٩ ،

١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ٢٠٢)

— ونتلو من الآيات المحكمات خطاباً للمصطفى :

« قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ،

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

ونقرأ في التأويل العصري أن القرآن يخبر [عن غيب محجب مطلسم لم يكشف إلا لقلة من المخصوصين من أهل التصوف]
ويتبرع الدكتور المفسر فيقدم لك وصفة للحظوة والوصول ،
[حينئذ يتفضل عليك الله كما يتفضل على أحبائه وأوليائه ،
يفتح بصيرتك لترى الملائكة شهوداً وترى الغيب حضوراً وتسمع
ما لا أذن سمعت] ص ١٢٩ .

* * *

أقول الحق : لقد تحيرت مع هذا التأويل العصري ، فحيث
يقول مرات : إن القرآن ليس كتاب علم (ص ٢٦) ولا كتاب
فلسفة ولا سياسة : (١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٣٨ ، ١٦٨)
يؤكد في مواضع أخرى :

[إن التوحيد نشأت منه كل أعداد المعارف والعلوم] ص ٢١٩
 [وهو يدللك على علوم لم تعلم بعد . . . ويقدم إليك
 حكمة الأزل ودستور الحياة وفلسفة في الأخلاق والحكم واللاهوت
 وما وراء الطبيعة . وفي المعاملات والحرب والسلام . . .] ص ٢٠٦ .
 [وفوائح السور علوم علياسوف نصل إليها فيما بعد] ص ١٩٥ .
 [وتتسابق العلوم فلا تكاد تلحق بأذيال القرآن] ص ٢١٢
 وحيث يقول إن الاجتهاد في أمور الدنيا مباح ، لكنه
 في أمر غيبي [أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن : فضلا عن
 أنه ليس في مقدورنا] ص ١٤٥ .

بؤكد غير مرة ، أن في هذه البشرية من علم الغيب
 شهوداً ، ويلقانا بتأويلات موهلة بنا في مجاهل من حياة كانت
 لنا قبل النزول في الأرحام ، إلى غيب الساعة واليوم الآخر .

* * *

ألا ليت الدكتور أخفى ما كشف له من أسرار غيبية
 وفتوح ربانية ، وسلك مسلك الصوفية الذين قال فيهم :
 [ويُخفى الواحد منهم كراماته كما يخفى عورته ، لأنها السر
 الذى بينه وبين ربه ، وعلامة المحبة والخصوصية والقرب .
 وما بين المحب والمحجوب لا يصح إفشاؤه وابتذاله . وقانونهم :
 الذى يتكلم لا يعرف ، والذى يعرف لا يتكلم . . . وما أندر
 هؤلاء الربانيين في هذا الزمان] ص ١١٠

وبعد؛ فقد تصديت لهذه القضية ونشرت فيها ما نشرت ، وأنا أتوقع سلفاً ما يواجهني من سخط الذين يرضيهم أن يفهموا كتاب الإسلام كما يبينه لهم مفسر عصري ، يخيلهم بما لم تعرف مدرسة النبوة من غيب الساعة والحياة الآخرة ، وما لاعهد لها به من نظرية التطور وجيلولوجيا القمر وديناميكا الصلب ، والإلكترون والكهر ومغناطيسية ، وفن الديكور والسيمفوني والمعمار . ويفتيهم في الحلال والحرام بما يعطل حدود الله ويلغى قانون السببية .

لكني توقعت مع ذلك أن تمس كلماتي ضمائر من يؤمنون بكرامة العلم وحرمة القرآن ، وأشهد لقد تلقيت من رسائل التأييد ، مالا أذكر أنني تلقيت مثله على طول عهدي بالكتابة في قضايا الفكر الإسلامي .

ولولا أنني آخذ بمبدأ « القضايا لا الأشخاص » لسرني حقاً أن أذكر أسماء الذين تفضلوا فكتبوا إليّ ، وأن أنقل هنا نص الخطاب الذي تلقتّه « إدارة النشر بمؤسسة الأهرام » من دار النشر والتوزيع في الخرطوم : ترجو فيه طبع مقالاتي ، في التفسير العصري ، في كتاب نحجز منه لقراءها في السودان ثلاثة آلاف نسخة

وقد كان اعتزازي بحسن رأيهم فيّ ، وتقديرى لموقفهم معي ، بما جعلني أعجل بنشر هذا العرض الموجز للقضية ،

قبل استكمالها بما يشغلني الآن من (دراسة للقاديانية والتفسير
العصرى) تكشف عن مسار هذا التيار الجائح الذى يستبيح
تأويل كلمات الله بغير علم ولا هدى .

ولعل أخطر ما تتعرض له الحرية . هو أن نحجر على حق
متخصص فى أن يرفض فتاوى غير المتخصصين وتدليسهم ،
وأن يقول : لا ، فيما يستبيحون لأنفسهم من امتهان لكرامة
عقولنا . كما أن أخطر ما يزيغ العصرية ، أن تطارد وصمةُ الجمود
من يرفض فوضى الإباحة لأقدس الحرمات ، وأن تتخذ
العصرية قناعاً لشهود الجن والشياطين والملائكة عياناً ، وعلم
الغيب شهوداً !

بروح عصرنا ، تدرك أمتى أن أى علم يلتمس من مراجعته
الموثقة ، ويؤخذ من علمائه المتخصصين .

ويليماننا بالعلم ، ندرك أن عصرنا يفكر عامياً بعقلية الغد
وطموح التطور ويرنو إلى عصر ما بعد الوصول إلى القمر ،
أما الدين فنفهمه نقيماً بمنطق العقيدة التى لا تتغير مبادئها بتغير
الزمان والمكان ، لأن الدين ثابت فى جوهره وأصله ، وقيمه
ومثله .

وأعلم أن ابنتى المتخصصة فى الرياضيات ، تشتغل فى
دراستها الجامعية العليا بتعديل « نظرية أينشتاين فى النسبية »
حين لا أطمح إلى أن أخرج من طول عكوفى على الدراسة

القرآنية ، بأكثر من محاولة فهم القرآن نقيًا أصيلاً كما بينه خاتم النبیین المبعوث بهذا القرآن ليبينه للناس .

وكبرت كلمة يقولها مفسر عصرى ، فهم من القرآن أن [جبريل يمكن أن ينزل إلى الأرض في أية صورة ، ويحمل الوحي إلى أى نبي في أى عصر وبأية لغة] :

فهل بلغت ؟

اللهم فاشهد ، والسلام على من اتبع الهدى

كيمياء السعادة
حسين أحمد أمين

في
المكتبات

فهرست

صفحة

٥	مدخل
١٣	هذا القرآن
٤٣	القرآن الكريم ، بين الفهم والتفسير
٦٥	لكيلا تفضل المقاييس
٨١	دفاعاً عن منطق عصرنا وكرامة عقولنا
٨٩	بيت العنكبوت
	بين الدراسة القرآنية والتفسير العصري :
١٠٥	في المنهج
١١٤	وفي الموضوع
١١٧	(١) الغيب
١٤١	(٢) حرية الإنسان
١٥٣	(٣) الوجود والعدم
١٥٥	(٤) جدل في البعث
١٦٥	اللهم فاشهد

١٩٩٩/٢١٣٧	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5735-4	الترقيم الدولي

١/٩٨/١٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

على مدى أربعة عشر قرناً، لم يكن للأمة الإسلامية ملاذ يحمي بقاءها وتحقق به وجودها غير هذا القرآن.

وفي صراع القوى المعنوية بين الرسال وخُصومه، لم يعرف تاريخ الإسلام هدفاً لعدوه سوى هذا الكتاب بسلطانه النافذ على ضمير الأمة.

وإذ لا سبيل إلى تحريف نصه الثابت وتبديل كلماته الموثقة كان همُّ أعداء الأمة أن يحتالوا عليها بتأويلات خلابة خاطئة، تنجرف بالفهم الرسال عن كتابه المُحكّم، فلا سبيل يؤمن وجودنا سوى أن يكون فهمنا لكتاب الله محرراً من كل الشوائب المُقحمة، والبدع المدسوسة، بأن نلتزم في تفسيره ضوابط منهجية تصون حرمة كلماته، فنرفض بها الزيف الباطل، وفتنة التمويه، وسكرة التخدير.

٤٠٣٦٨٥/٠٢

